مطابع أخبار اليوم
قطاع الثقافة

في روضة القرآن

الرضا

فضيلة الشيخ
محمد الراوي

مطبوعات أخبار اليوم

في روضة القرآن

الرضا

فضيلة الشيخ : محمد الراوى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم سعده

في روضة القرآن

الرضا

حقيقته ودلالته

١ - الرضا : حقيقته ودلالته

ر ض و . ر ض ى

الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد **يدل على خلاف السُّخط**

فالسخط ضد الرضى

والرضى ضد السخط

الرضا حب وسكون وهناء

والسُّخط كُرْهٌ وحَيْرةٌ وشقاء

« اللهم إنى أعوذُ بِرضاكَ من سَخَطك ، وبمعافَاتك من عُقُوبتك »

فإن للرضى آثاره فى حياة الفرد وروابط المجتمعِ وللسخط آثاره

فمع الرضى لنراه فى مجالاته وآثاره المتعددة

ولنبدأ بأعظمه شأنا وأبلغه أثرا .

فى روضة القرآن

رضى الإنسان عن ربه

٢ - رضى الإنسان عن ربه :

إن من رضى عن الله أرضاه الله بما آتاه ورضى عنه ومن لم يرض عنه ربه فَقَد الرضى فى جميع أمره فلم تطب له حياة .

ولكن كيف يحيا الإنسان راضيا فى أحواله المتباينة .

فى العسر واليسر . والصحة والمرض ، والحياة والموت أم كيف يكون راضيا مع مشاغل هذه الأحوال وهمومها ؟

إن الأمر يقتضى أن يعرف الإنسان حكمة خلقه وغاية وجوده حتى يعلم أن مداولة الأيام بين الناس فى مصلحته إن هو أدرك حكمة خلقه وما يقتضيه من ابتلاء وامتحان .

فالعسر واليسر ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر والحياة والموت ، والهزيمة والنصر أعراض فى الحياة الدنيا لابد أن تكون ولابد أن يتحدد موقف الإنسان منها وأن يجيب عنها وهو مُمْتَحن

سان . ومن أجل الإبتلاء كانت

ة أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان ٢)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

(الكهف ٢)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾

(الملك : ١ ، ٢)

وإذا كانت تلك حكمة الخلق فلابد للإنسان أن يدركها وأن يجعلها - فى جميع أمره - نصب عينيه . ليُحْسِنَ فى جميع الأمور ولا يسئ ، وليُصلحَ ولا يفسد . فإن للابتلاء نتائجه . وللعمل جزاءه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم . ٣١)

في روضة القرآن

إقتران الرضا بالإيمان والقدر

٣ - إقتران الرضا بالإيمان بالقضاء والقدر.

لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأة لم يكن ليصيبه .

فالإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان بالله لا يصح الإيمان إلا به .

وقد سأل جبريلُ الرسول ﷺ عن الإيمان والناس جلوس عند رسول الله ﷺ كما سأله عن الإسلام ، والإحسان والساعة ليعلِّم الناسَ دينهم . فأجابه الرسول ﷺ حيث قال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه . قال : صدقت » .

فالإيمان بالقدر إيمان بأن الله قد علم وأحاط بمقادير الأشياء وأحوالها التى ستكون عليها : من مبدأ ونهاية ، وقوة وضعف وخير وشر ، وما تقع فيه من زمان ومكان ، وما يسبقها من مقدمات وما يتبعها من آثار إلى غير ذلك بحيث يكون إيجادها بعد علمٍ وفق ذلك العلم .

فلا يقع مثقالُ ذرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا طبقًا لما أحاط به علمهُ وسبق به كتابه .

والإيمان بالقدر على هذا النحو له آثاره فى استقامة الإنسان واعتداله ورضاه عن ربِّه فى جميع أحواله .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد : ٢٢ ، ٢٣)

ولعلَّنا نلحظ ما يكون للإنسان من استقامة واعتدال حين يَسْلَمُ من أسًى وبَطَر . يصيب من لا يؤمن بالقدر .

إعتدال واستقامة فى مواجهة أحداث الحياة المتباينة من عسر ويسر وشدة ورخاء .

والإنسان وهو يرجو أن ينجو من فتنة الحياة وفتنة الممات لا يُعصم منها إلا برضاه عن ربِّه وإيمانه بقدره .

إذ من ذا الذى يعصم الإنسان من طغيانٍ إن هو استغنى .

ومن ذا الذى ليعصمه من ذل وهوانٍ إنْ فاته المطلوب أو أبطأ المرغوب .

عندئذ يكون الرضا عن الله فى جميع الأحوال أصل فى الاستقامة والتوازن والإعتدال والناس يمرون بفتَنٍ أمواجها كالجبال يُصرعُ الإنسان فيها باليُسر كما يُصرع بالعَسر ويفتن بالخير كما يبتلى بالشر.والتوازن والإعتدال هو السبيل لنجاته من حسرة مقعدة على مفقود أو بطر مدمِّر لحصوله على مرغوب .

الرضا عنَّ ربِّه والإيمانُ بقدرَه هو السبيل ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

ولكن ...

فى روضة القرآن

كيف يحافظ الإنسان على نعمة الرضا

٤ - كيف يحافظ الإنسان على نعمة الرضا

فى زحمة الحياة وظلمات الأهواء والشهوات . كيف ؟

لابد أن يتعهد الإنسان قلبه وأن يحاسب نفسه لكى تظل نعمة الرضا سابغةً فى حياته كلِّها . والقلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . كما قال الرسول ﷺ . فكيف نحفظها من الصدأ الذى يفسدها والرين الذى يغلب عليها .

ـ حين تكثر المعاصى والذنوب فتحيط بالقلب ..

نحفظ القلوب بصقلها وجلائها من الشرك والنفاق والجهل وسوء الأخلاق لتظل سالمة مطمئنة راضية مرضية .

وسبيلنا إلى ذلك ما بيَّنه الرسول ﷺ حين قال « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قيل : فما جلاؤها ؟

قال : « **ذكرُ الله وتلاوة القرآن** » وذاك ما يستلزمه الرضا عن الله . فإن من رضى عن ربه أحبَّه ومن أحبه عمل بطاعته ولم ينقطع عن ذكره وشكره .

في روضة القرآن

ما يستلزمه الرضا عن الله

٥ - ما يستلزمه الرضا عن الله :

يستلزم الرضا عن الله الرضا بأمر الله ونهيه ونصره فى النفس بحيث يكون هوى النفس تبعاً لطاعته . ولن يستطيع أحدٌ أن ينصر الله فى أحداث الحياة حتى ينصره فى نفسه بتغليب أمره على هواه .

والاعتماد على رحمة الله وعفوه دون عمل بأمره ونهيه يحتاج إلى تَوْبَةٍ واستغفار .

« فإنَّ كثيرا من الجهال أعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه ، فضيعوا أمره ونهيه ، ونسوا أنه شديد العقاب ، وأنه لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند » .

وكما قيل : « رجاؤك لِرَحْمَةِ مَنْ لا تُطِعْه مِنَ الخذلان والحمق » .

وكان الحسن يقول : « إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة . يقول أحدهم : لأنى أحسن الظن بربى ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل » .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟

فقال : والله لأن تصحب أقواما يخـوفونك حتى تدرك أمناً خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف .

إن الرضـا عن الله يستلزم الرضـا بأمـره وإن كنت كارها لمـا أُمرت به والرضا بنهيه وإن كنت مُحبًّا لما نُهيت عنه .

فكم من أمـرٍ يكرهه الإنسـان وفيه خـيرُه ، وأمـرٍ يحبه وفـيه شـره .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة : ٢١٦)

فالرِّضا عن الله تَسـليم بكلِّ ما أمر به وقضى وحكم . فـما أمر به جـديرٌ أن يُتَّبع ومـا نهى عنه لزم أن يُجـتنب . والتـسليم بذلك دلالة صدق وإيمان . والرضـا عنه سبيلُ فوزٍ وفلاح .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور : ٥١ ، ٥٢)

في روضة القرآن

الرضا والدار الآخرة

٦ - الرضا .. والدار الآخرة

لا أتصور أن أحداً تتحقق له نعمة الرضا ـ كما ينبغى ـ بغير الإيمان بالدار الآخرة وما فيها .

فالرضا عن الله إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والدار الآخرة وإيمان بالقدر خيره وشره .

فالإيمان بالدار الآخرة ركنٌ من أركان الإيمان

والدار الآخرة ليست بمعزل عن دنيانا .

ودنيانا مزرعة لها ومقدمة للوصول إليها .

وكل يوم يمضى بل كل لحظة تسرى تقرب من الآخرة ونبتعد عن الدنيا .

« فالدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب وساعٍ بينهما كلما اقترب من أحدهما بَعُدَ عن الآخر » .

وفى الآخرة الجزاء الحق الذى لا يمكن أن تُفهم حكمة الخلق بغيره فبغير الجزاء فى الآخرة يكون الخلق عبثا وباطلا وحاشا أن يكون . إن الجزاء فى الآخرة هو الذى تتحقق به الحكمة فى أن تكون الدنيا دار امتحان واختبار .

فالدنيا مقدمة والآخرة نتيجة . ولا فصل بينهما . واستيفاء الحقوق فى الدنيا وحدها أمر يصعب تحقيقه .

وفى الدنيا تتنازع الأهواء والشهوات وتتصارع الميول والرغبات وفى الدنيا ظالم ومظلوم ومعطى ومحروم وفيها محسن ومسئ ومفسد ومصلح . فهل تطوى صفحة دنيانا دون عدل وإنصاف وحساب وجزاء .

إن رضا الإنسان عن ربه وهو يؤمن بآخرته يجعل رجاءه فى العدل يقينا لا شك . فقد يُظْلَمُ الإنسانُ من غيره وهو يبغض الظالم ويكره الظالمين . ولكنه يرضى عن ربه لأنه يوقن أن حقه لن يضيع بين يديه . فمافاته هنا سيلقاه هناك

فتقرير اليوم الآخر تقريرا قاطعا فى الاعتقاد والواقع

يفسر لنا كثيرا من المبهمات التى لاتستقيم أبدا مع حكمة الخلق وإحكام الصنع وخلق الإنسان .

يفسر لنا قضية إنسان بات مظلوما وخرج من دنيا الناس محترق الكبد مشوى الفؤاد .

فالعدل يقتضى أن ينصب الميزان وأن يتم الحساب ويقع الجزاء .

وهذا ما قررهُ الإسلام وآمن به الرسل والمؤمنون معهم وهم الراضون عن الله فى جميع الأحوال .

والذين يرون غير ذلك لن ينقطع السخط من حياتهم ولن يتوفر لهم الرضى بحال .

العدل يقتضى أن ينصب الميزان ، وإلا كان عبثُ الخلق أوسع مدى من أن تتصوره أذهان البشر .

وكان الإنسان غير ملوم إن هو أسفّ بغرائزه عن الحيوان .

ولكن القرآن الكريم يحسم القضية ويحكم فيها بتكريم الإنسان بجعله مسئولا عن عمله ملاقيا جزاءه .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء ٤٧)

والتقرير بهذه الصورة مع كونه يكرِّم الإنسان إلى أبعد حدود التكريم ويميزه بالمسئولية والجزاء عن سائر المخلوقات . يفسر أيضا حكمةالخلق وأن الإنسان خلق لغاية تتميز معها خصائص الإنسان وتنطلق مواهبه . وهذه الغاية هى التى تتحقق بها الحياة . الحياة بمعناها الباقى الممتد ، الحياة بأصالتها ومعرفة خالقها الحياة لا الموت . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

وما أحكم وأجمل وأصدق قول الرسول ﷺ :

« والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن على ما تعملون . ولتجزون بالإحسان إحسانا . وبالسوء سوءا وإنها لجنةٌ أبدا أو لنار أبدا » .

بهذا الحق والحقيقة تصلح الحياة ويتم التوازن والاعتدال فى دنيا الناس ، ويرتفع النَّهم الأبله والجشع المفتون وتقوم الضوابط الخلقية التى تحجز الشر وتردع الفساد فى داخل النفوس أولا ـ وهى تعلم أنها مسوقه بعملها لساحة حق وميزان عدل ـ .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(آل عمران ٣٠)

فتقر عين المظلوم الذى فاته الحق فى الدنيا ولم ينصب له ميزان عدل فيها . ويخيب سعى الظالم وقد وجد الله فوفَّاه حسابَه.

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾

(طه : ١١١ ، ١١٢)

والذى يجعل الإنسان يرقب ذلك إيمانه بربه ورضاه بحكم خالقه وعدله . ويقينُه أن العاقبة لا تكون إلا لمن خشى الله واتقاه وثقته أن الدار الآخرة هى الحياة وأنها خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

لذلك قلَّما ترى راضياً عن ربه يَقْتُل نفسا ليخلص من نيران حسرة وألم ، قلما تراه ساخطا على قضاء أو مختالا فخورا بنعمة وعطاء .

إنه يعلم أن حسرات النفوس لا يطفئ نيرانها إلا الرضى عن الله وحسن الاستجابة لأمره واليقين بقضائه فهو يرجو ربه ويذكر فضله ويعانق الصبر على ذلك إلى وقت لقائه والنعيم بجزائه فلا يسخط ولا يقنط مع شدة وبلاء وهو يعلم أن ذلك عرض سيزول وأن فيه خيراً لو أحسن تدبره .

« وأمر المؤمن كله خير إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له » .

وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلْباً أشتدَّ بلاؤه .

وإن كان فى دينه رقّه أبتلى على قدر دينه . فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »

فبلاءُ مَنْ حَسُنَ دينُه دلالة حُبٍّ ورضًى من ربِّه .

وكان النبى ﷺ يقول فى أشد لحظات الابتلاء :

« إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى »

ومن تدبر العواقب - وهو راض عن ربه - رأى منَّة الله فى طىِّ المكاره وكم لله من منَّة فى طىِّ المكاره .

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(النساء . ١٩)

في روضة القرآن

الرضا .. والواقع

٧ - الرضا .. والواقع

ماذا نعنى بهذا العنوان الذى يثير كثيرا من التساؤلات فى واقع يَئِنُّ الإنسانُ فيه من الظُّلم والبَغى والعدوان والتسلط فى عصر يُعبَدُ فيه الهوى وتسودُ الأنانية وتتمزق الروابط .

هل يرضى الإنسان بما هو واقع ؟

ألا يكون الرضى بهذا الواقع مواتٌ للإنسان وقَتْلٌ لمواهبه وتشجيعٌ للعدوان والفساد فى جميع صوره ؟

إن الكون كلُّه فى حركة دؤوب لا تتوقف .

ولابد للإنسان أن يتسق مع الكون الذى يعيش فيه فى القيام بما خُلِقَ له .

بإرادة تتفق مع الفطرة ولا تناقضها حتى يتسق مع الكون كلِّه فى التسبيح بحمد ربِّه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الإسراء : ٤٤)

ولكى يتسق الإنسان مع فطرة الكون بإرادته لابد له من العمل الهادف الذى يتجه إلى غاية راشدة تتعاون الأمة كلها على تحقيقها فى انسجام لا تناقض فيه ولا تضارب .

فإن أخطر ما يصيب أمة أن تتناقض أهدافها وأنْ تتصارع وسائلها .

فإن الأجيال التى تنشأ فى مناخ التضارب والتناقض ستصاب بأخطر الأمراض النفسية التى تدمِّر ولا تعمر .

وتسوق الفناء إلى ما شُيِّد من بناء .

وليس الهدفُ لأى أمة شعاراتٍ تظهر ثم تغيب وتبدو ثم تختفى .

إن الأهداف والغايات ثابتةٌ باقيةٌ وإن تطوَّرت الوسائل أو تغيرت . ومع ثبات الغايات تثبت قيم الإنسان وصفاتهٌ من جدٍّ وعملٍ وصدقٍ وتعاون وبرٍّ وعدل وحبٍّ ووفاء .

هذه القيمُ التى توصف بمكارم الأخلاق .

لا غنًى لأمة عنها وإن تفاوتت فى القدْرِ الذى تأخذ به نفسها ولكنَّها فى جميع الأحوالِ ضَرُورات لـتميُّزِ جنسِ الإنسان وتحقق ما فُضِّلَ به وكرِّم .

والذين يظنون أن تَفَوُّقَ الأُمم ناشئ عن تفوقها فى مجالات بعيدة عن صفاتِ الإنسان يخطئون .

لأَن الأصل فى أىِّ حضارة تُقَام ، هو الإنسانُ بخصائصه وعلمه وعَمَله واتِّساقه مع فطرةِ الكون دون تعارض أو تناقضَ .

وعندئذ نستطيع أن نفرق بين أمرين :

بين الرضا عن الله ، والرضا عن الواقع الذى هو من صنع الإنسان .

فإن الرضا عن الله لازمٌ فى جميع الأحوال .

والرضا عن الواقع مُقَيَّد بضوابط وحدود لمصلحة الإنسان .

تعين على تحسين الواقع والوصول به إلى ما هو أفضل وأنفع .

ولو تفوقنا على كافة الأمم .

وتحسينُ الواقع يستلزم دائماً الرضا عن الله .

فإن الرِّضاَ عن الله معناه عدم الركون إلى يأسٍ أو قنوط بل التحرك والانطلاقُ بأملٍ وثّاب وتوبة دائمة نصوحٍ وإقلاع عن الآثام والمعاصى والذنوبِ التى تدمِّر الأُمم وتُهلك الشعوب .

الرضا عن الله معناه عدم الرضا عن النفس واتهامها دائما بالقصور والتقصير .

الرضا عن الله أصلٌ أصيلٌ فى تجديد الأمل وتحسين العمل وتجاوز العوائق التى تحول بيننا وبين ما هو أفضل . وسنن الله تُوفِّى لكل عامل عمله فى دنياه وآخرته : إنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

ولابد من إرادة صادقة فى عمل دنيانا وآخرانا .

ولا يضيع عملٌ لهذه أو تلك . والنتائج دائما مرتبطة بالأعمال والغايات . وسنن الله لا تجامل ولا تحابى ولا تتبدل ولا تتحول .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة : ٧ ، ٨)

وتلك سنن الله وهذه آياته :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لا يُبْخَسُونَ ﴾(هود : ١٥)

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾(الإسراء : ١٩)

فالرضا عن الله تتجدد به الحياة .

ولا يقع فى ساحتها ـ مع الآلام والمتاعب والمصاعب يأسٌ أو قنوط ـ تاجرٌ أصيب فى تجارته بكساد أو بَوَار يُحَاسب نفسه على أخطائه ولا يرضى عما وقع من خطأً منه أو تجاوز .

ولكنه يرضى عن ربِّه ، ولا يتَّهم الأقدار فيما وقع فيه بل يتَّهم نفسه :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾

(الشورى : ٣٠)

يرضى عن ربه فى جميع الأحوال لأن الله قد يسرَّ له الأسباب التى ينهض بها فى غير يأس ويعمل دون توقف .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى : ٢٥)

الرضا عن الله نورٌ لا ينطفئ أبدا مع صدق الإيمان واليقين .

وبذا يتجدد الأمل والعمل وتأتى النتائج بعون الله بارَّةً راشدة .

والأملُ مع اليقين ليس شيئاً مُؤقَّتاً يتحوَّلُ إلى قنوط إذا أبطأ المطلوب . بل هو مستقر استقرار اليقين فى القلب يمتدّ ويتَّسع كلما عظم الكرب أو اشتد .

وتأمَّل عمل اليقين مع مؤمنٍ فقد من البلاء بصره فجدَّد اليقينُ أملَه وافسح الرضا عن الله رجاءَه حيث قال :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(يوسف ٠ ٨٧)

وكــأنِّى والله أرى فى منطق ـ يعـقوب عليـه الســلام ـ حركـة النَفسِ وحركة الحسّ مَعًا فى قوله

أذهبوا . فتحسسوا . ولا تيأسوا .

فأىُّ قوة يمكن أن تُقَابَل بها أحداثُ الحياة مثلُ هذه القوة ؟

وأىُّ رجـاء يمكـن أن تسـتقـيم مـعه شـئون الحـياة بعـد هذا الرجاء ؟

بل أى حـركة عامـلة مهـذبة يمكن أن تنبع من نفس المـصاب فـتدفـعه إلى عـمل الدنيـا والآخرة ولا تدعـه يهوى صـريع الألم واليأس والانقباض والحسـرة مثل ما نراه فى دلالة هذه الآية وما تم بوحيها من عملٍ وأثرٍ ونتيجة ؟

لا أخال الذين يتـحدثون عن التواكل فى ظل هذا الشمـوخ الفذ للعواطف الهُوج إلاَّ قوماً طَلَبـوُا الدِّين فى جثثِ الموتى الذين كتبت على قبورهم إعلانات مظلومة « مسلمون »

ولو طلبـوه فى تربته الحـقيـقيـة وأخذوه من مـعينه الأصـيل لوجدوا أنفسهم أمام حركـةٍ لا تهدأ . وإزاء فطرة راشدة تتخذ من تعمير الدنيـا واكتشاف مكوّناتها سبيلا إلى الخـشوع فى محراب

الْخالَق والتوصل إلى جناته .

ووجدوا أن الحركة هنا ليست لغرض محدود أو رغبةٍ طارئة تتوقف إذا تحقَّق الغرضُ ، وتنتهى إذا أنتهت الرغبةً .

بل هى فى الحقيقة حركة الدوام ودوام الحركة موصولة . باتصال الخلق متصلة بدار الحق .

وهذه الحركة الدائبة الموصولة المتصلة بالخالق هى التى يذهب بها الفقر إذ هو من شهوات النفس وقد استقام أمرها وطَابَ سعيها . ويختفى الجهل فى مجال السعى فى كل سبيل . فنحن نرغب فى العلم ونطلبه فرضا ولو فى الصين .

ونبذله بارّين لا طامعين ولا مغتصبين .

ولا مجال للمرض فى أرض وئد فيها الفقر وشاع العلم والْتَقَى الناس على خير وطهر وبرِ .

وتلك المنغصات الثلاثة التى جلبها فقر النفس حوربت فى ظاهرها ولم تُقتلع من جذورها .

ولن تُقتلَع إلاَّ **بالرضى عن الله والأخذ بالأسباب** كما أمر الله فى شتى المجالات .

فى روضة القرآن

الرضا والأخذ بالأسباب

٨ - الرضا .. والأخذ بالأسباب

إن الأخذ بالأسباب طاعةٌ ـ وقد أمر الله به .

والتفريط فى الأخذ بالأسباب معصية .

ولا يكون الإنسان راضيا عن ربِّه إن هو قصَّر فى الأخذ بالأسباب أو تَعَمد إبطالها ،أو ركَنَ إلىَ الأسبابِ وأسند الفضل لها .

مريض عليه أن يأخذ بالأسباب فى طلب الدواء رغبة فى الشفاء . والله قد جعل لكل داءٍ دواءاً .

فليأخذ الإنسان بالأسبابَ وليذهب إلى الطبيب ولا يقصِّر فى علاج مرضه . وليكن على يقين وهو يأخذ بالأسباب إن الشفاء بيد الله وحده ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء : ٨٠)

الأخذ بالأسباب طاعة وإنكار الأسباب معصية .

والركون إلى الأسباب وحدها دون يقين بأن الأمر بيد الله وحده ـ مفسدةٌ ومضيعة .

وهنا تكون الحاجة إلى الرضا عن الله بيِّنَةٌ فى المقدمات والنتائج .

فى المقدمات أخْذٌ بالأسباب ، طاعةٌ لله الذى جعل لكل شئ سَبَبَاً .

إذ لا يكون الإنسان راضيا عن ربه مُحِـبًّا له إلا بطاعته وتجنب معصيته .

وفى النتائج لا يسند الفـضل إلا لمِنْ له الخلق والأمر تـبارك الله رب العالمين .

﴿ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدينِ ، وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفينِ، وَالَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيينِ ، وَالَّذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدّينِ ﴾ (الشعراء : ٧٨ ـ ٨٢)

ولا منافاة بين شكر الله وإسناد الفـضل إليه وشكر الناس على ما قدموا من عون . فإن لم يشكر الناس لم يشكر الله .

علينا دائما أن نأخـذ بالأسباب فى كلِّ المـجالات وأن ندرك أن هذا هو السـبيل لطلب مـا نرجوه من ربِّناَ منْ رزق وفـوز ونصر وذاك هو مفهوم التوكل على الله **أخذٌ بالأسبَاب ورِضًى بالنتائج** وإذا جاءت النتائج على غـير ما نرغب فلنتهم أنفسنا بتـقصير فى سبب أو تفريط فى مقومات إيمـان ويقين . ولا نتَّهم الأقدار بحال من الأحوال بل نرضى كل الرضـا عن قدر الله فيـما نحب أو نكره فى موت وحياة وعسر ويسر وشدة ورخاء . فإن الرضا عن الله ـ بعد القـيام بما أوجب ـ يجـعل النتائج بارةً بالإنسان سـواء كانت عسراً أو يسراً صحة أو مرضاً حياةً أو موتاً . هزيمةً أو نصراً .

لأن الإنسان سيقابل النتـائج بصبر أو شكر وفى ذلك كلِّه خير كمـا قال الرسول ﷺ فيـما رواه مسلمٌ عن أبى يحيى صـهيب بن سنان رضى الله عنه :

قال : قال رسول الله ﷺ : « عَجَباً لأمر المؤمن إنَّ أمْرَه كلَّه له خير ولَيْس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن : إنْ أصابته سَرَّاءُ شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكَانَ خيراً لَه » .

ومع الصبر والشكر يكون الرضا عن الله وتكون النتائج بارَّةً بالإنسان إن هُوَ أحْسن النظر إلى العواقب ولم يأخذ بالعاجل من الرغائب بارَّةً به فى دنياه وفى آخرته وهو يعمل الصالحات ويكف عن السيئات .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٩٧)

والصبر والشكر جمَاعُ ما يجب أن يكون عليه الإنسان لكى يكون راضيا عن ربه فَبِهِمَا يبقى الإنسان فى قوة ومنَعَة لا يفقد رضاه عن الله فى أى حال كان . ولا تكون النعمة ـ وهو يشكر ربَّه ـ مدعاة إلى إرادة علوٍّ فى الأرض أو فساد ولا يكون الضرُّ مدعاة إلى ذلة أو انكسار وهو يصبر صبر الحر الكريم الذى يرى مع العسر يسراً ومع الضيق فرجا .

فيسعى فى الأرض سعى الواثق المطمئن يغدو ويروح متوكلا على الله وهو يعلم أن الله يرزقه كما ترزق الطير . والطير تغدو خماصا وتعود بطانا .

فلا يهمل الأخذ بالأسباب ولا يقعد عن طلب الرزق .

وأنت تأخذ بالأسباب **اذكر الله كثيرا ولا تنساه** ، وما يذكّرك بالله لا ينفك عنك ولا يغيب .

ويكفى أن تُبْصِرَ نَفْسَكَ لتذكرك .

وآياته هى العاملة فى نشأتك ورزقك ، وفى حياتك وموتك وفى دنياك وآخرتك .

فأنت ترى بفطرتك أن الله وحده هو المالك لجميع أمرك .

وفى كل خطوة من خطواتك أنت مدين لفضله وعونه ورحمته وقد جاء زمنٌ من قبل لم تكن فيه شيئا مذكوراً .

وسيأتى يومٌ ترى نفسك فيه قَدْ عُدْت من حيث أتيت وأُخرجت من حيث قُبِرت . ثم إليه ترجعون .

وضمير العظمة لا ينفك عن أى شأن يتصل بك .

والعظمة لله وحده :

أنظر إلى ضمير العظمة فى قوله :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(طه . ٥٥)

وخذ التصريح بلفظ الجلالة من قوله :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

(نوح : ١٧ ، ١٨)

هل ترى لأحد غير الله تَصَرْيفاً فى أخص ما يتصل بك من نشأةٍ وحياةٍ وموتٍ وبعث .

إن شيئًا واحداً هو الذى يرجع إليه جميع أمرك . وهو الله الذى يملك كل شئ .

﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٤)

خذ مثلا الحواس التى تستعملها فى الأخذ بالأسباب وأنظر من يملكها ؟

ومن يملك أن يردها إذا أخذها ؟

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس : ٣١)

هذه حواسك التى تسعى بها وهذا الرزق الذى تطلبه بل هذه الحياة من بدايتها إلى نهايتها وتدبير الأمر كلّه .

لمن يكون ؟ ومن يملك ويرزق ؟ فسيقولون : **الله فقل أفلا تتقون** ؟ إذاً فأنت تأخذ بالأسباب التى أعطاها الله لك ولا أحد يستطيع أن يردها إليك إن أخذها منك .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

(الأنعام : ٤٦)

فالأسباب التى تأخذ بها مقترنة دائما **بالتبصرة والذكرى** والله عز وجل يذكرك بالنعمة سلْباً وإيجابا .

لتعرف قدر ما أنعم عليك فلا يغيب عنك شكرها .

يذكرك بما جعل لك من السمع والبصر .

ويبصرك باستعمال هذه النعمة فيما خلقت له . ولكى يكون تقديرك لهذه النعمة تقديرا راشدا ذكَّرك بها عَطَاءً .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل . ٧٨)

وذكَّرك بها سَلْبًا وافتراضاً .

لو اخَذَ الله ما أعطاكم مَنْ إلهٌ غيرُ الله يستطيع أن يأتيكم به ؟

وترى ذلك فى كل ما أنعم الله به عليك وأعطاك

يذكرك به سَلْبًا وإيجابا

فالماء الذى لا غنى لأحدٍ عنه . يذكِّرك بأنه عطاءٌ منه سبحانه لا من أحدٍ غيره . وأن الله هو الذى جعله نافعا عَذْباً فراتا ولو شاء لجعله أجاجا . بل لو شاء لجعله غَوراً لا تستطيع له طلبا .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠)

وهكذا كل نعمة أعطاها الله لك يعينك على شكرها بتصريف الآيات فى تبصرتها والتذكير بها .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾

(الملك ٣٠)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ

اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص : ٧١ ـ ٧٣)

أرأيت كيف تُصَرَّفُ الآياتُ لتبقى التبصرة والذكرى قائمةً فى حياتك كلِّها . تستحضر بها حكمةَ خلقك وغاية وجودك .

ولكن التبصرة والذكرى لا ينالُها إلا من أرادها وانشرح صدره لها . وبها يقترن رضاك عن ربك وانابتك إليه واخلاص عبادتك له.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان : ٦٢)

التبصرة والذكرى قائمةٌ فى الآفاق وفى الأنفس

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد .

فأنت لا تأخذ بالأسباب بعيداً عما يبصّرك ويذكرك .

وإنما تأخذ بالأسباب بنفسك وفى الأنفس تبصرةٌ أى تبصرة وفى ليلٍ أو نهار وفيها تبصرة وتذكرة .

وفى كونٍ واسع فيه أرضٍ تقلك وسماء تظلك .

وفى الأرض آيات وفى السماء آيات وآيات .

فالتبصرة والذكرى لا تنفك عنك فى أى شأن ولا تغيب .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق : ٦ ـ ٨)

والآيات فى الأنفس وفى الآفاق لا تقف بك عند معرفة الحق فى شئون دنياك .

وإنما تقدم لك التبصرة والذكرى فى اليقين بما تؤمن به فى دنياك وأخراك ونَزَّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد .

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ، رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق ٠ ٩ ـ ١١)

فلم تقف بك التبصرة بالماء عندما تحصله من متاع .

فالمتاع لك وللأنعام . « متاعاً لكم ولأنعامكم »

وإنما امتدت بك التبصرة بالماء ـ والله يحيى به الأرض بعد موتها ـ إلى إحيائك بعد موتك « كذلك الخروج » .

﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(فصلت : ٣٩)

« وأحيينا به بلدةً ميتا كذلك الخروج »

أى خروج الموتى من قبورهم

تلك وظيفة الماء فى التبصرة والذكرى بجانب ما له فى حياة الناس من نفعٍ ومتاع .

تبصرة امـتدت إلى عقيـدة البعث لتقيم الدليل علـى وقوعه بلا عُسْرٍ أو تكلف .

وكم فى القرآن الكريم من آيات قـد ذكر فيـها الماء بتبـصرته وذكراه وقد جعله الله سببا لكل حياة .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر : ٩)

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف ٥٧)

فأنت لا تأخـذ بالأسباب منفصـلا عن التبصرة والذكـرى ففى طعـامك وشـرابك وصـحـوك ونومك وليلـك ونـهـارك وغـدوك ورواحك. وصحـتك ومرضك . وأحوال المخلوقـات من حولك فى كل شـئ لك فيه تبصرة وذكرى

فإن تحـققت التـبصرة والذكـرى فى نفسك خَلُصت عـبوديتك لربك فلم تكن فى حياتك كلِّها عبداً لأحدٍ سواه .

وكم فى الناس من عبد لما يهواه من لذة وشـهوة وزينة ومتاع ولن ينتصر فى نفسك حُبُّك لربك ورضاك عنه فى كل حال إلا إذا انتصرت علـى نفسك بتغليب أمر الله على هواك ومن انتـصر على هواه عَرَفَ كيف يرضى عن مولاه .

ومن غلبه هواه فهو مغلوب فى دنياه وأخراه .

وفى الناس مَنْ يأخذون بالأسباب فى شتى المجالات وتفتح عليهم الدنيا ويأتيهم من رزق الله ما يأتيهم ولكن تغيب عنهم التبصرة والذكرى فتتحول نعمة الله بما كسبت أيديهم إلى خسران عليهم ونقمة .

ذلك أنهم لم يأخذوا من نعمة الله عليهم إلا ما تأخذه الدوابُّ والأنعام من متاع .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

(محمد : ١٢)

ذلك أن هؤلاء قد غفلوا عما خلقوا له وما جاؤا من أجله .

فاستعملوا حواسَّهم للعاجلة وحجبوها عن الآخرة مع أن الآخرة هى الحياة

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(العنكبوت . ٦٤)

أوقفوا أنفسهم على متاع الحياة الدنيا وزينتها وغفلوا عن عاقبتها وغايتها والله عز وجل لم يحرِّم زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق .

ولكنه ـ سبحانه ـ جعلها زينة ولم يجعلها قيمة .

والزينة تذهب والقيمة تبقى .

وقيمة النعمة فى التبصرة بها وشكر خالقها ومعطيها .

والأخذ بالأسباب يرتبط دائما بما أعطى الله وهدى

والله قد أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وما أعطاه الله للناس من سمعٍ وأبصار وأفئدة لا يتحقق الأخذ بالأسباب إلاَّ بها وقد جعلها الله لغاية إن ضُيِّعت ضاعت معها حكمة خلقها ووجودها .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٨)

وتلك هى الغاية التى يفقدها من قَصَـرَ حَواسَّه على متاع الدنيا فلا يرى من الأشـياء إلاَّ ظاهرها وهو غافلٌ عن حقـائقها وغايتـها وحكمـتها . فـيقع الفـصل بين المـقدمة والـنتيجـة .. بين المـتاع والتبصرة بل بين الدنيا والآخرة .

فيأخذ مَنْ يأخذ بالأسباب لكى يحصل ما يتطلع إليه من رغائب مشروعة أو غير مشروعة . دون نظر إلى العواقب حسنةً كانت أو سيئة .

فيسئ من حيث يجب أن يحسن .

ويُفْسِد من حيث يجب أن يصلح .

ويكفِر من حيث يجب أن يشكر .

فَتُعْزَلُ هذه الحواس من سمع وبصر عن أخصِّ ما خُلِقت له من معرفة وهدايةٍ واستقامةٍ وتبصرةً .

وعندئذ يكون هؤلاءً ـ بما صاروا إليـه ـ كالأنعام بل هم أضل مع أن لهم سمعا وأبصارا وأفئدة .

لأنهم ضَـيَّعُـوا ما تَمَـيَّزوا به ومـا خُلِقـوُا من أجله فعـوقبـوا

بالحرمان من الإفادة منها .

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٤٤)

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الأعراف ١٧٩)

ولا تسل عما يكون مع الغفلة من سوء التقدير واضطراب الموازين حيث يضل من يضل وهو يحسب أنه يُحْسِنُ صُنْعًا .

فيقولون سمعنا وهم لا يسمعون .

ويقولون عقلنا وهم لا يفقهون .

ويقولون رأينا وهم لا يبصرون .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »

وعندئذ نرى غاية الأخذ بالأسباب عند هؤلاء .

أن تتحقق لهم لذة عاجلة أو منفعة زائلة أو دنيا صاخبة وليس لموازين الحلال والحرام عندهم قدر .

ولا للمعروف شأن أى شأن .

فمرحبا عندهم بالظلم إن حقق لَذَّة .

ومرحبا بالغدر إن أحرز غنيمة .

بل واحسرتاه ـ عند هؤلاء ـ إن فاتهم المطلوب أو أبطأ المرغوب.

لا يذكرون الله ولا يعرفون معنى الرضا إلا حيث تتحقق أغراضهم ومنافعهم فى دنياهم .

﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

(التوبة : ٥٨)

ولا أتصور أن سلْماً أو أمنا أورضاً يتحقق للإنسان مع هذه الأغراض وتلك الغايات .

بل سيقع التنافس المسعور الذى يجعل الناس أسرى لشهواتهم وأهوائهم . ومن أسره هواه ضل مسعاه وخسر دنياه وأخراه لأن الذى يرتفع بهم عن ذلك قد ضيعوه ولم يستمسكوا به ضيعوا ما تستقيم به الحياة وينعم الأحياء من ذكر الله والرضا عنه .

ولا أعرف عقوبة أشد من عقوبة من اتخذ آلهه هواهُ إنها عقوبة يفقد معها أسباب الهداية والتبصرة بل يفقد أسباب الحياة ولا يجد من يهديه من بعد الله .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية : ٢٣)

ودنيا الناس مليئة بمثل هؤلاء الذين لا يستجيبون للحق ولا يرونه إلا فيما يحقق أهواءهم وشهواتهم .

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ (النور : ٤٩)

وقضايا الحق ليست بمعزل عن جزئيات الحياة وقضايا الأحياء ودعاة الحق لا يخلو منهم زمان أو مكان . وفى كل شأن لا يغيب عن الناس وجه الحق فيها . وللحق نوره وبرهانه وإن جحده الجاحدون . فمن اتبع هواه لم يستجب للحق وإن سطع نوره وغلبت حجته وبرهانه .

وهؤلاء لا يتدبرون العواقب وهم يجحدون الحق فيفسدون ويظلمون فإن من تدبر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبدا . وإن الجاحدين لمأخوذون به .

فإن للحق ناراً ونوراً فمن أبى النور فالنار موعده .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(القصص : ٥٠)

فالأسباب التى أعطيت للإنسان لكى يتدبر ما يصلح أمره فى دنياه وأخراه ـ من سمع وأبصار وأفئدة ـ قد عوقب هؤلاء بفقدانها وإن ظنوا أنهم يعقلون أو يبصرون أو يسمعون . فختم الله على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة . وأضلهم على علم بحالهم وقد أعذر اليهم بالهدى والبيان فأبوا إلا اتباع الهوى وعبادة الشيطان .

إن الإصرار على اتباع الهوى واتخاذه إلها يُعبد . تقع عقوبته فى الدنيا قبل الآخرة بفقدان صاحبه التوفيق والهداية والاستقامة.

وهى عقوبة من اتبعوا أهواءهم فَظَلُّوا فى طغيانهم يعمهون .

إن الأخذ بالأسباب ـ مع اتباع الأهواء والشهوات ـ دون الإيمان بالحق والقيام بالقسط لا يحقق نعمة الرضى التى تبقى وتدوم .

إن نعمة الرضا التى تبقى وتدوم هى نعمة الرضا عن الله

وهى نعمة جديرة أن تخضع لها الأسباب وأن تبذل فى سبيلها الأنفس والأموال نعمة الرضا عن الله تقترن دائما بحبِّه وابتغاء مرضاته .

تقترن باتباع الأسباب التى شرعها لتحقيق المصالح واجتناب المفاسد والذين ترتبط دوافعهم بمنافعهم دون نظر لما يحل لهم وما لا يحل قد يحققون لأنفسهم لذةً عاجلة وقد يرضون بها لحظة من ليل أو نهار ولكنها لا تبقى ولا يبقى الرضى بها بل تذهب ويذهب الرضا بها وتبقى التبعة ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (آل عمران : ٣٠)

وكثيرا ما نرى النتائج أو دلائلها عاجلة فى دنيا الناس مقترنة بخير ما يريدون أو شر ما يعملون .

فترى من أعان ظالما طالبا لمنفعة . ترى من النتائج أن هذا الظالم قد يُسلَّط على من أعانه على ظلمه « ومن أعان ظالما سُلِّط عليه »

أليست هذه نتيجة عاجلة وعبرة كافية وكثيرا ما تكون وترى من أرضوا الخلق فى معصية الخالق يفقدون كل شئ بفقدهم رضا الخالق . وترى ذلك عاجلا فى مداولة الأيام بين الناس . فإن فى مداولة الأيام عبراً وعظات لمن أراد أن يتعظ أو يعتبر . وفيها من النتائج للعاجلة ما يجعلنا نقدر لعمل الخير قدره فنستبق الخيرات . ونقدر لعمل الشر خطره فنجتنب المظالم والسيئات . ونجتنب فيما نجتنب نتائج إرضاء الخلق فى معصية الخالق .

فى روضة القرآن

إرضاء الخلق في معصية الخالق

٩ - ارضاء الخلق فى معصية الخالق

فإن ذلك يفقد الإنسان رضى ربه ويبعده عن ولايته ونصرته ومن اتبع ما أسخط الله وكره رضوانه ضلَّ سعْيُه وحبط عمله .

ومن أرضى الله أغناه الله برضاه وكفاه ولم يجعل حاجته لأحد سواه ـ ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وكثيرا ما يسعى الناس لمرضاة غيرهم ـ فى معصية الخالق ـ طلبا لمنفعة عاجلة ينشدونها لأنفسهم أو يدخرونها لمن وراءهم .

« والويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربِّه بِشَر »

ولذا وجب أن يراقب الإنسان نفسه وأن يُصلح نيته ويمسك لسانه حتي لا يقع فيما يغضب الله أو يجلب سخطه .

« ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم »

ولو استطاع الإنسان مع نفسه أن يمسكها عما يُرديها ويُنْقِصُها لكان من أول ذلك الا يكون إمَّعةً يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤا أسأت . فإن هذه التبعية والمطاوعة دون نظر وتدبر . تجعل الإنسان متَّبعا لأهواء الناس لا للحق الذى أُمِرَ باتباعه . ومن اتبع أهواء الناس بغير هدى من الله هلك بهلاكهم وخسر بخسرانهم .

والرسول ﷺ ينهانا عن المطاوعة المطلقة دون حُدود أو

ضوابط فإن المطاوعة لا تكون إلا فيما يرضى الله . وهى عندئذ طاعةٌ للخالق لا للمخلوق فيقول ﷺ « لا يكن أحدُكم إمعةً يقول إن أحسن الناس أحسنت . وإن أساؤا أسأت ولكن وطِّنُوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تُحسنوا وإن أساؤا أن تجتنبوا إساءتهم .

فليرغب الإنسان فيما يحب الله ويرضى ويمسك نفسه عما يُغْضبُه ويسخُطه فإن الله قَرَنَ وعده بوعيده ليكون العبد راغباً راهباً .

فإن المراحل التى يمر الإنسان بها والمضايق التى يقع فيها تستلزم أن يأخذ الإنسان من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الممات . فإن الموت قادمٌ لا محالة

« والموت أهونٌ مما بعده وأشدُّ مما قبله »

فإن فاتك خيرٌ فأدركه ، وإن أدركك شرٌ فأَسْبِقه واعلم أن عليك من الله عيوناً تراك .

فاحرص دائما أن تكون حيث يحب الله . وأحسن كما أحسن الله إليك واعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

واعلم أن أطوع الناس لله أشدُّهم بُغْضاً لمعصيته .

وأن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك فلا تنافق ولا ترائى ولا تهن . واستعن بالله ولا تَضْعُفْ وأصلح نَفْسك يصلح لك الناس .

« واتق الله حيثما كنت وأتبع السَّيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »

واحذر نفسك فإن النفس أمارة ، ولكل نفس شهوة وإذا أعطيتها تمادت . والنفس راغبة إذا رغَّبْتَها

والنفس كالطفل أن تهمله شب

على الرضاع .. وأن تفطمه ينفطم

وكن مع الحق حيث كان فلا نجاة إلا بالحق ولا فوز إلا بالصدق ولا تتبع الباطل وكن من أهله على حذر .

حتى تسلَم نفسُك من الخضوع لهوى نفسك أو أهواء غيرك فتُرضِى الخلق فى معصية الخالق أو تركن إلى هوى نفسك وتنسى ربك فإن من نسى الله أنساه الله نفسه فأساء وهو يظن أنه يحسن وأفسد وهو يحب أنه يصلح .

وذاك هو الضلال والخسران

كن مع الحق ليثقل ميزانُك : « فحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا ، وحق لميزان يوضعُ فيه الباطل أن يكون خفيفا »

ولا فلاح إلا لمن ثقلت موازينه .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

(الأعراف : ٨ ، ٩)

إن كثيراً من الناس يريدونك أن تكون لهم وأهواء الناس متعددة ومآربهم مختلفة . وإرضاء الناس غاية لا تُدرك .

ولابد لحياة الناس من ميزان توزن به الأعمال ومن سبيل يستقيم معه الخُطى والمسير .

ومن فضل الله ورحمتـه ـ وهو أعلم بخلقه ـ أن وضع الميزان وحدَّد السبيل وأرسل الرسل ليكونوا أسوة للناس فى الأخذ بما وضع من ميزانٍ وحدَّد من سبيل ولكن النَّاس ـ وهم يخضعون ـ للهوى يتبعون سُبلاً متعددة فيتفرقون ويبتعدون عن الصراط المستقيم ويضلون السبيل .

وذاك ما وصَّى به عباده ليتقوا سوء العاقبة والمصير .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٣)

فأفلح واتَّقى من حفظ نفسَه من هوَى نَفْسه وأهواء الناس .

ومن كرمت عليه نفسُه ـ هانت عليه شهوته ـ فعصمها بحسن الاستجابة لله وللرسول وأيقن أن ليس لنفسه ثمن إلا الجنه فلم يبعها إلا بها .

فلم يجد الناس عنده ما يطمعون فيه من إرضائهم فى معصية الله . ومن آثر الله على هواه لقى الله فرضى عنه وأرضاه .

إن شهوة الإنسان قد ترديه ورغبته فى المنافع العاجلة قد تدفعه إلى إرضاء من ينشد منهم منفعةً أو يتوقى بهم مضرة . ومن أيقن أن ذلك كلَّه بيد الله وحده علم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه لم ينفعوه إلا بشئ قد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشئ قد كتبه الله عليه » فلم يقع منه إلاَّ ما يرضى الله عز وجل .

ومن كَرُمت عليه نَفْسُه كفَّها عن كثيرٍ من الرغائب لتُرَدَّ إلى المحامد والمكارم .

قال الحسن البصرى : كان مالك بن دينار يطوف بالبصرة فى الأسواق فينظر إلى أشياء يشتهيها فيرجع ويقول لنفسه : أبشرى فوالله ما حرمتُك ما رأيت إلاَّ لكرامتك علَى »

في روضة القرآن

إعلان الرضا
عبادة ودعاء

١٠ - إعلان الرضا عن الله عبادة ودعاء :

« رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا »

هكذا يكون إعلان الرضا كما علمنا رسول الله ﷺ :

فعن أبى سلاّم رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ مرفوعا . أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من قال إذا أصبح وإذا أمسى . رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً كان حقًّا على الله أن يُرضيه »

رواه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم

ومن أحسن التدبر عرف كيف يكون تحقيق الرضا شاملاً كاملاً كما بيَّنه رسول الله ﷺ .

إذ لا يكون راضيا بالله من لم يرض بما رضيه له حيث قال :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾

(المائدة : ٣)

فإعلان الرضا بالإسلام إعلان بالرضا عن الله الذى شرع لنا من الدين ما وصَّى به الرسل جميعا وأمرهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه .

ولا يكون مؤمنا بالله ولا راضياً به من لم يكن حبُّه لمن أرسله أعظم من حبِّه لنفسه وماله والناس أجمعين .

فإعلان الرضا بخاتم المرسلين ﷺ إعلان بالرضا عن الله الذى ارسل نبيَّه بالهدى ودين الحق .

إعلان كامل شامل لا يُقَبَلُ إيمانُ مؤمن إلا به ولا يصح إلا بالتسليم له .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥)

وإعلان الرضا على هذا النحو الشامل الكامل لا يصفو إلا بابتلائه وتمحيصه فى معترك الحياة .

ومن أجل ذلك كانت مرحلة الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء وامتحان .

ومن سنن الله فى خلقه أن الناس لا يُتْركون أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون فلابد أن يقع فى حياتهم ما يميز صفوفهم ويعلم الصادق والكاذب فيهم :

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

(العنكبوت : ٣)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

(محمد : ٣١)

فإن الله الذى رضينا به ربّاً ـ وهو رب كلِّ شئ ـ قد أرسل

رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط

ولا يتحقق الرضا من الله والرضا عنه إلا بإقامة العدل الذى من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتاب وخلق السموات والأرض وجعل الآخرة دار جزاء لمن أحسن أو أساء .

فالعدل الذى أمر الله عباده المؤمنين بأن يكونوا قوامين به لابد من حساب وجزاء عليه .

وهو شامل لشئون الحياة كلها ، شامل لعلاقة الإنسان بكل شئ . عَدْلٌ فى علاقة الإنسان مع ربه وذلك بتحقيق ما خُلق الإنسان من أجله . عدلٌ فى ذات الإنسان وعلاقته بغيره . عدل فى النية والقول والعمل عدلٌ مع العدو والصديق والقريب والبعيد .

فلا يحول بين العدل وبين الإنسان حائل من قرابة أو عداوة وذاك ما أمر الله به فى قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(العنكبوت : ٣)

وقوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة : ٨)

هكذا يقام العدل دون نظر لقوى أو ضعيف أو غنى أو فقير أو عدو أو صديق أو قريب أو بعيد .

فعلى الإنسان الذى يعلن رضاه عن ربه أن يكون حَذراً من المؤثرات التى تحول بينه وبين القيام بالقسط الذى يرضاه ربُّه مؤثرات أهواء النفس والميل إلى الوالدين والأقربين وتفاوت الناس فى الغنى والفقر والقوة والضعف « إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

فالعطف على الضعيف مهما بلغ ضعفه وعلى الفقير مهما كان فقره قد يجعل الإنسان يميل إلى الضعيف والفقير بدافع من عاطفة فيحكم لهما دون نظر لما يجب من تحقيق العدل بعيدا عن المؤثرات الخارجة عنه .

فليكن عطفك على الفقير بمعاونته وعلى الضعيف بمساعدته .

دون خلط بين ما يجب من إقامة العدل بينه وبين غيره .

ومؤثراتِ العداوة التى قد تدفع الناس إلى الجور والظلم وتدعوهم إلى مجاوزة الحق .

هذه المؤثرات مع تنوعها وكثرتها هي أقوى العوامل فى اختبار الإنسان وامتحانه وبيان ما هو عليه من صدقٍ فى الرضا عن الله والوفاء له فى القيام بالقسط كما أمر .

والنفوس التى تعرف ربَّها وتخشاه لا يتغير رضاها عن ربها بتغير الأحوال من عسرٍ ويسر وشدة ورخاء لا يتغير رضاها عن

الله مهـما عظم الكرب وأشتد وهى تـعلم أنَّ عظم البلاء مِنَّةٌ من الله على من يحبُّه ويرضاه .

ولذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء

وإذا أحب الله عبداً ابتلاه

وهذه النفوس تمتحن بأقوى المـؤثرات التى قد تميل بالانسان عن الحق والعدل . مؤثرات بما يصيبهم فى ذات أنفسهم ومؤثرات بما يقع من حولهم

وهنا يكون التمـيز بين الناس وهو ثمرة الابتلاء والامـتحان بالشدائد والبأساء والضراء . وبالخير والشر .

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٥)

وتلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾(آل عمران : ١٧٩)

مع مداولة الأيام وتبـدُّل الأحوال يمكن أن يَعْـرفُ الإنسان عن نفـسه إن كان بصـدقٍ وحقٍّ راضيـا عن ربِّه أم أن رضاه مـرتبطٌ بحال بعينها إن تيدلت تيدل معها رضاه .

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾

(الحج : ١١)

وهذه المؤثرات مـمتدة مع الإنسـان حتى يلقى ربَّه فثـباتهُ مع العدل والحق هو دلالة رضاه عن ربه

روى مسلم عن خالد بن عمر العدوى قال : خطبنا عتبة بن غَزْوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بصُرْم ، وولَّتْ حَذَّاءَ ولم يَبْقَ منها إلاَّ صُبَابه كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبُها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زَوَاَل لَهاَ .

فانتقلوا بخير ما بحضرتكم .

فإنه قد ذُكر لنا أن الحجرَ يُلقى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما لا يُدرك لها قَعراً . والله لتُمْلأن ، أفَعَجِبْتُم ؟

ولقد ذُكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما . وليأتين عليها يومٌ وهو كَظيظٌ من الزحام .

ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلاَّ ورقُ الشجر حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا . فالتقطت بردةً فَشَقَقتها بينى وبين سعد بن مالك .

فَاتَّزَرْتُ بنصفها واتَّزر سعد بنفصها .

فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرا على مصرٍ من الأمصار .

« وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا »

راوى الحديث خالد بن عمر العدوى من كبار التابعين .

وعتبة بن غزوان صحابى جليل قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة وكان من الرماة المذكورين . روى له عن رسول الله ﷺ

اربعة أحاديث هذا أشهرها . وليس له فى الكتب الستة سواه .

وكان أميرا على البصرة : وقد بناها عتبةُ بن غزوان فى خلافة عمر سنة سبع عشرة .

خطب عتبة بن غزوان هذه الخطبة التى ترينا ما كان عليه صحابة رسول الله مع نبيهم فى تبدل الأحوال . بل ترينا جوانب ثلاثة يجب تدبرها والاسترشاد بما جاء فيها :

الأول : النظرة إلى الحياة نظرة كاملة شاملة لا تقف عند الدنيا وحدها بل تعرف حدودها وتأخذ خير ما فيها .

الثانى : وصف الجنة والنار : وما يترتب على ذلك فى دنيا الناس .

الثالث : ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته وعتبه واحدٌ منهم .

أما الجانب الأول فبعد أن بدأ عتبةُ رضى الله عنه خطبته مقتديا برسول الله ﷺ فى حمد الله والثناء عليه والإتيان بقوله « أما بعد ».

تحدث عن الدنيا فقال : **« إن الدنيا قد آذنت بِصُرْم »**

أى بانقطاع وفناء .

وكل شئ فيها دالٌ على تَقَضيها ، سواء بالنسبة لأجل الأفراد وما أزهده أو أجل الدنيا وما أقله .

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بعضَ يَوْمٍ فَاسألِ الْعَادِّينَ ، قَال إن لبِثتمْ إلا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُم تعْلَمُونَ ﴾

وجميع الألفاظ التى استعملها عتبة رضى الله عنه تدل على حقيقة حال الدنيا « قد آذنت بِصُرْم » أى بسرعة انقطاع وفناء

« وَوَلَّت حذاء » أى سريعة .

ولم يبق منها إلا صُبابة : أى بقية يسيرة .

فإن للدنيا أجلا ، وما أسرع ما تمضى الأيام وتنقضى الآجال وإذا كان القبر أول منازل الآخرة فما أسرع الوصول إليه والمبيت فيه ولا يعلم أحدٌ ساعة رحيله من الدنيا كما لم يعلم من قبل ساعة مجيئه .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

(لقمان : ٣٤)

وفى خفاء أمْرِ الأجل على الناس حثٌ على اتخاذ الأهبة واستباق الخيرات والمبادرة بالأعمال الصالحات

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾

(البقرة : ١٤٨)

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

بادروا بالأعمال سبعاً[١] . هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنْسياً ، أو غنىً مطغياً أو مَرَضاً مُفسِداً أو هَرَماً مُفَنِّداً[٢] أو مَوْتاً مُجهزاً[٣]

(١) أى : من النوازل أو الأمور التى بينها الرسول ﷺ بقوله . هل تنتظرون إلا فقرا منسيا .. الخ

(٢) أى . يتسبب عنه نقص العقل أو اختلاله . (٣) أى : سريعا

أو الدجال فَشَر غائبٍ يُنتَظرَ ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » .

رواه الترمزى : وقال حديث حسن

ما أسرع ما يقع من أمرٍ يحول بين الإنسان وبين فعل الخيرات فليسارع فإن الانتقال واقعٌ لا محالة فى أىِ صورة من الصور ولذا قال عتبة رضى الله عنه .

وإنكم منتقلون منها إلى دار لازوال لها :

تلك هى دار الإقامة وذاك هو الوطن الأصلى الحقيقى إلى دار لا زوال لها

كم يعانى المسافر الغريب للوصول إلى وطنه ؟

وكم يكابد من المصاعب والمتاعب لكى يصل إليه ؟

لكنه عندما يصل - وهو واصل لا محالة - يشعر بالطمأنينة والمؤانسة من الأهل والصحب . وعند وصوله سالما يذهب كل تَعَبٍ مضى وكل ألم قد انقضى .

بَيد أن ذلك متوقفٌ على أن يخرج الإنسان من الدنيا بخير ما فيها وخيرُ ما فيها تقوى الله وعملٌ صالح . وخيرُ الزاد التقوى

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة : ١٩٧)

وهى كلمة جامعة محققة لطيب الدنيا ونعيم الآخرة .

« فانتقلوا بخير ما بحضرتكم »

جعل الخير المتمكّن منه فى الحياة الدنيا كالحاضر المحتاج إليه فى المآل

فصاحب الحزم يدَّخـرُ منه حاجته لينتفع به عند احتـياجه إليه كما قال ابن عمر رضى الله عنهما « وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »

٢ – يأتى الجـانب الثـانى : وهو وصف النار والجـنة مُقـدِّمـا الترهيب على الترغيب .

لِتَتَـخَلَّى النفسُ عن آثامهـا وذنوبها أولا ثم تَتَـحَلَّى بفضـائلها وصالح أعمالها . فقال رضى الله عنه .

« فإنه قد ذُكـرَ » ببِنَاء الفعل للمجهول وحَـذْف الفاعل للعلم به وهو الرسـول ﷺ وقـد ذَكَرَ علمـاءُ الأثر أنَّ من المـوقـوفَ لَفْظاً المرفوعَ حكما قولُ الصحابى :

أُمرنا بكذا أو نُهينا عن كذا بالبناء للمجهول فيهما .

« قَدْ ذُكـرَ لنا أن الحجر يُلْـقَى من شفيـر جهنم فَيَـهْوى فيـها سبعين عاماً لا يُدْرِكُ لها قَعْراً . والله لتُملأَن أفَعَجِبْتُم ؟

« **والله لتُملأَنَّ** » . أكَّد بالقَسم وباللام دفْعاً لما قد يَقْصُر العقل عن إدراكه من مـلء ما كان هذا عُـمْقُـة فما بالك بِعُـرضه وكَـمَالِ سَعَته .

وإذا كان كذلك وتمتلئ عن آخرها .

فاحذروا من مـخالفة الله سبحانه وابـتعدوا عن معصيـته حتى تنالوا الفوز بالبعد عنها .

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران ١٨٥)

« أفَعَجِبْتُم » ؟

والتقدير أسَمِعْتُم فعجبتم فالفاء عاطفة على مقدّر ولما ذَكَرَ لهم ما يحقِّقُ الرهبةَ والخوف أخَذَ بهم فى ميدان الأمل والرجاء لتحيا النفس بين الأمرين فى استقامة واعتدال .

فقال رضى الله عنه :

« ولقد ذُكر لنا أنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرةُ أربعين عاما وليأتين عليها يومٌ وهو كظيظٌ من الزِّحَام »

« المصراعين » بكسر الميم تثنية مصراع . ومصراع الباب الشطر وهما مصراعان من مصاريع الجنة ما بينهما مسيرةُ أربعين عاما .

وليأتين عليها - أى الجنة - وهو أى المصراع ومحلُّه من الباب.. كظيظٌ أى ممتلئٌ من الزحام . والزحام مصدر زاحمه أى دافعه .

وهذا يدل على كثرة الداخلين فيها بعموم رحمة الله ومزيد فضله .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٣)

وإذا كان هذا هو المصير فإن من أبين وجوه الرحمة بعباده أن يُعْلِمَهُم بما هم قادمون عليه من جزاء مترتب على أعمالهم .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الانفال . ٤٢)

إن الطريق إلى الجنة قد بيَّنَه الله عز وجل . وهو طريق لاينعزل عن الدنيا ولا يبتعد عنها بل يمر فيها ويتصل بكافة شئونها .

فالدنيا تربة ينبت فيها عملُ الإنسان ويختبر سعيُه وهى زائلة لا محالة . وعند الله يجد الإنسان نتيجة غرسه وثمرة سعيه .

ومهما يكن فالله ليس بزائل ويجنى الفتى من بعد ما هو غارس

٣ - ولننظر إلى الجانب الثالث من خطبة ابن غزوان رضى الله عنه وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعتبةُ واحدٌ منهم .

يقول رضى الله عنه : « ولقد رأيتُنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ **ما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر حتى قَرِحَت أشداقُنا** » .

ما لنا طعام إلاَّ ورقُ الشجر . أى فأكلناه إلى أن قَرِحَت أشداقنا : والشدق جانب الفم ويجمع على أشداق وشدوق .

قرحت : أى صار فيها قُروح . قَرح بفتح القاف وضمها الجرح .

هذا طعامهم فما اللباس ؟

قال رضى الله عنه : « **فالتقطتُ بُرْدَةً** » : أى عثرتُ عليها من غير قصد وطلب ، وهى شملة مخططة ، وقيل كساء مربّع .

« **فشققتها بيني وبين سعد بن مالك** » وهو سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة .

« **فاتَّزَرْتُ بنصفها واتَّزرَ سعدٌ بنصفها** »

بادر بشَقِّها عقب التقاطها إمَّا لِعلمه برضا صاحِبها وإما بإعراضه عنها لتمزقها .

قال : **فما أصبح - أى صار - اليوم منا أحد إلاَّ أصبح أميرا**

على مصر من الأمصار

يشير بذلك إلى اتساع الحال بعد ضيقه .

الحال مع العسر : هو الرضا والقناعة واتزار النفس بفضائلها وصفاتها والحال مع اليسر تحدده الكلمة الأخيرة المعبرة أصدق تعبير عما يدور فى نفوسهم .

« وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا »

هذا حال صحابة رسول الله ﷺ فى العسر واليسر .

معرفتهم لله فى الحالين تسدد خطاهم . وهم بهذه المعرفة أعزاء مع العسر كرماء فى اليسر : وإنى أعوذ بالله - أى اعتصم به من أن أكون **فى نفسى عظيما** بأن تحدثنى نفسى بذلك أو يوهمنى الشيطان فأفقد تواضعى لربى وشكرى لخالقى .

وأعوذ بالله أيضا **أن أكون عند الله صغيرا** ، لا يُقْبلُ عَلَىَّ بالفضل والإحسان ولا يَنْصبُ لعملى وزن إذا نُصب الميزان .

قال ﷺ « يجاء يوم القياة بالرجل العظيم لا يَزنُ عند الله جناحَ بعوضة . اقرؤا أن شئتم : « فَلا نُقيمُ لهم يوم القيامة وزنا » هذا ما يستعيذ منه الصحابى الجليل عتبة ابن غزوان .

« أن يكون فى نفسه عَظيماً وعند الله صغيرا » .

إنهم يحرصون على مكانتهم عند الله ولا تكون لهم مكانة حين يرون أنفسهم قد صاروا عظماء وهم عند الله صغار .

لذا نراهم يعلنون رضاهم عند الله فى الحالين دون تبدل أو

تغير

في العسر بالرجاء فى الله والصبر

وفى اليسر بالتواضع والشكر

فلا يفقدون رضاهم عند الله فى أى حال

وهكذا يكون حال صاحب الصدق والإيمان واليقين .

لا يسكت عن ذكر ربه وإعلان رحمته وفضله .

إن أصابته مصيبة قال : **إنا لله وإنا إليه راجعون**

وإن أتاه شئ من فضل ربه عرف حقه فقال ·

﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل : ٤٠)

وذاك هو عين الرضا عن الله وثمرة العبادة والدعاء وبه يتحقق للإنسان سلمه وأمنه فى ذات نفسه بالطمأنينة بذكر ربه وفى مجتمعه بالعدل فى اعطاء كل ذى حق حقه .

فلا يشغله عاجلٌ عن آجل ولا تلهيه لذةٌ ذاهبة عن عاقبتها فى الآخرة وعندئذ يكون قولُ المؤمن « رضيتُ بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » قولاً تصدقه الحقيقة والواقع إذ « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل »

فمن أعلن الرضا عن الله لابد أن يُرَى رضاه فى معترك الحياة هل يؤثر هواه أم يؤثر الحق والعدل فى معاملته ابتغاء مرضات الله .

ويكون ذلك فى كل شأنٍ صَغر أو كبر فإنَّ موازين الحق والعدل لن يفلت منها شئ فى حساب أو جزاء .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧)

إن مَنْ رَضِىَ عن ربه لا يظلم غيره شيئا وإن كان يسيراً لأن ذلك يجلب سخط الله وغضبه ومن ظَلَم غيره فقد ظلم نفسه وأساء إليها من حيث يظن أنه يحسن إليها ولن يفلت ظالم من جزاء وإن استدرج أو أُملى له .

ففى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ · « إن الله ليُملى للظالم فإذا أخذه لم يُفْلِتْه ثم قرأ :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

(هود . ١٠٢)

فالرضا عن الله أصلٌ فى إحقاق الحق وإقامة العدل وإعلان الرضا عهدٌ وميثاق لا يُنْقَض ولا يُجْحد ونقض الميثاق فى كل حال فساد ودمارٌ ولعنة وخسران

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

(الرعد : ٢٥)

والوفاء بالعهد دلالةُ رشدٍ وتبصرة

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (الرعد : ١٩ ، ٢٠)

وأخطر ما يقع فى حياة الناس نسيانُ ماأخذ الله عليهم من عهد وميثاق وما أخذه عليهم من عهد قد شهدوا عليه بفطرتهم فلاً مناص من حساب وجزاء فالحق والعدل ليسا بعيداً عن فطرة الخلق وحكمة الوجود ولكن الذى يبعد الناس عن الحق والعدل فى معاملاتهم غفلة سادرةٌ وطغيان .

مع أن الحق قائم فى أنفسهم ولكنهم لا يستبصرون .

والعدل شامل فى فطرة الكون من حولهم ولكن كثيرا منهم غافلون .

فما طالبهم الله به من الوفاء للحق والعدل - بإرادتهم فى سعيهم وعملهم - متحقق فى فطرتهم التى فطر الله الناس عليها .

ونجاة الإنسان وفوزه يتحقق باتساق إرادته مع فطرته وفطرة كلِّ شئ تسبيحٌ بحمد الله وإن لم نفقه تسبيح كثير من الأشياء

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الإسراء : ٤٤)

نعم لا نفقه تسبيح كثير من الأشياء ولكن لا تغيب عنا دلالتها وتبصرتها وتذكرتها إن نحن أنبنا إلى الله واهتدينا بهداه .

وأعلنا رضانا عن الله صدقاً وعبادةً وسلوكاً وعملاً . فإننا بذلك نَتَجَاوَبُ مع فطرتنا ومع كل شئ تعظيما وتسبيحاً وحمدا .

فنحسن بذلك لأنفسنا ولا نسئ ونصل ما أمر الله به أن يوصل ولا ننقض عهد الله من بعد ميثاقه .

فيكون أعلاننا بالرضا عن ربّنا وإسلامنا ونبيّنا .

إعلانَ عبادة خالصة تُرى ثمارُها فى معاملتنا وأخلاقنا وإعلانَ دعوة إلى الله تُرى فى الناس آثارُها ونتائجها .

وكل ذلك يستوجب فقه ما أنزل الله من كتاب .

واتباع ما أرسل من رسول

وتلك هى الدلالةُ الصادقة على حبِّ الله وطلب مغفرته ورضاه .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(آل عمران : ٣١ ، ٣٢)

في روضة القرآن

الرضا.. في وقائع وأحداث

١١ - الرضا .. فى وقائع وأحداث

نقرأ كثيرا فى آيات القرآن

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة :١١٩)

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة : ٨)

فما صفات أولئك الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

حتى نرى ذلك فى وقائع وأحداث

إن الله عز وجل قد أخبر عن أولئك الذين رضى عنهم ورضوا عنه لتعرف أعمالهم وصفاتهم وليكونوا أسوة لغيرهم فى الأخذ بالأسباب لطلب المغفرة والرضا من الله وذلك هو الفوز العظيم وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

ولنقف عند ثلاثة مواضع ممن أخبر الله عنهم فى كتابه وبيَّن أنه قد رضى الله عنهم ورضوا عنه

الموضع الأول : فى سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(المائدة : ١١٩)

الموضع الثانى : فى سورة التوبة قوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٠)

الموضع الثالث : فى سورة البينة قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة : ٧ ، ٨)

وإذا نحن تدبرنا هذه الآيات الثلاثة من سورة المائدة والتوبة والبينة .

استطعنا أن نعرف صفات هؤلاء الذين حسنت عاقبتهم ورضى الله عنهم ونالوا الفوز العظيم فما هى هذه الصفات التى يمكن أن تقتبس من مضمون هذه الآيات :

١ - **الصدق** الذى لازم أصحابه فبّر بهم فى دنياهم وآخراهم **« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم »**

ومن المعلوم أن الصدق يهدى أصحابه إلى البّر والبر يهدى إلى الجنة كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ : قال . « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار . وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ونتائج الصدّق ليست بارّة بالناس فى أخراهم فحسب بل هى بارة بهم أيضا فى دنياهم فهى صفة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة .

فالذين صَدَقُوا وعلم الله صدقهم رضى عنهم وأرضاهم :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح : ١٨ ، ١٩)

هؤلاء المؤمنون الصادقون فى بيعتهم قد علم الله صدق قلوبهم.

وكان ذلك فى صلح الحديبية عندما بايعوا الرسول ﷺ بيعة صدق على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا . فعلم الله ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء .

فكانت النتائج عاجلة **فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها** . مع أنهم لم يزيدوا فى هذا الموطن عن صدق القلوب فيما عاهدوا عليه وبايعوا من أجله .

أخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شئ كنتم تبايعون ؟ قال : على الموت » .

وعن جابر عن النبى ﷺ قال : لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى .

إن الذين رضى الله عنهم قد علم منهم صدق القلوب « فعلم ما فىْ قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » . فكانت بيعة الرضوان يوم الحديبية فتحا .

والذين حقق الله لهم وبهم الفتح كانوا أهل صدق فى جميع أمرهم وفى مبايعتهم رسول الله ﷺ بيعة الرضوان .

والصدق يلازم صاحبه ولا ينفك عنه سواء أخطأ الإنسان أو أصاب فإن أخطأ استغفر وأناب وإن أصاب أسند الفضل لربه ولم يسنده لنفسه وهذه الصفة من أجمع الصفات التى يطلب بها النصر ويرجى الفوز وتنالُ المغفرة .

ولذلك نرى كعب بن مالك وهو من الثلاثة الذين خلِّفُوا وتاب الله عليهم نراه وقد بُشِّر بتوبة الله عليه - يقول لرسول الله ﷺ فيما قال : يا رسول الله إنَّ الله إنما نَجَّانى بالصدق . وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدْقاً ما بقيت . فَوَالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ما أبلانى والله ما تعمدتُ بعد ذلك إلى يومى هذا كَذِباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

فأنزل الله تعالى على رسوله :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة : ١١٧)

إلى قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(التوبة : ١١٧)

فوالله ما أنعم الله على نعمةً قطُّ بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ ، أن لا أكون كذبته ، فأهلِك كما هلك الذين كذبوا .

فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شرَّ ما قال لأحد . قال :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(التوبة : ٩٥ ، ٩٦)

الصدق نجاة لصاحبه فى دنياه وآخرته وهو من مكارم الأخلاق وأخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته .

وعقيدته ـ كما نعلم فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يعطى الأخلاق نفسها روح الثبات والقوة والشمول

ويمنحها روح التجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب .

فالصدق صدق فى جميع الأحوال فى النية والقول والعمل . مع الله ومع النفس ومع الخلق دون نظر لما يترتب عليه من عاجل منفعة أو مضرة لأنه فى ذاته قيمة يُبتلى صاحبها بما يبتلى به المؤمنون ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ .

فالصدق مع الله يستوجب الإخلاص فى عبادته وعدم الإشراك به يستوجب معرفته وخشيته ورجاء مغفرته .

وصدقك مع نفسك يستوجب ألاَّ تدعها تُرديك أو تُطْغيك **بطول الأمل واتباع الهوى .**

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

إنمـا أخشى عليكم اثنتـين : **طول الأمل واتبـاع الهوى** فإن الأول ينسى الآخرة والثانى يَصُدُّ عن الحق .

والصدق مع النأس ثمرة الصدق مع الله وحـسـن الاستجابة لله وللرسول وأداء ما فرضه الدين وأوجبـه . والدين النصيحة : كما جاء فـيمـا رواه مسلم عن تمـيم الدارى رضى الله عنه قـال : قال رســول الله ﷺ : الدين النصـيـحــة قلنا لمن ؟ قـال : لله ولكتـابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

والنصيحـة كلمةٌ جامعةٌ يُعـبَّر بها عن **إرادة الخير** . ولا يمكن أن يُعبَّـر عن هذا المعنى بكلمة واحـدة تحصرها ، وتجـمع معناها غيرُها .

وقوله عليـه السلام « الدين النصيـحة » يريدُ عمـاد أمرِ الدين إنما هو النصيحة .

وبها ثباته .

والصدق يستوجب أن يكون صاحـبه كذلك . فى كل شئ أمينٌ صادق لا يكذب ولا يخون .

وهذا بابٌ واسع يقتضى الفقـه فى الدين والعمل به حتى يكون صادقا ناصحا لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم كما يجب أن يكون .

« فمن نصيحة الله سبحانه وتعالى : **الإيمان به ، وصحة الاعتقاد** فى وحدانيته **وترك الإلحاد** فى صفاته . **وإخلاصُ النية** فى عبادته . **وبذلُ الطاعة** فيما أمر به **ونهى عنه ، وموالاةُ من أطاعه ، ومعاداةُ من عصاه ، والاعترافُ بنعمه ، والشكر له عليها** . وحقيقة هذه الاضافة راجعة إلى العبد فى نصيحة نفسه لله والله غنى عن نصح كل ناصح »(١)

واقتران الصدق بالنصيحة التى هى الدين يحقق الشمول فى أدائها مع أئمة المسلمين وعامتهم بالضوابط التى قررها الدين فى الدعوة إلى الله وبينتها آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن هنا يُعلم أن مجالات الصدق أوسع مدى من أن تكون مجرد حدث عارض يصدق الإنسان فيه ثم ينسى غيره .

مجالات الصدق فى الحياة كلِّها . سواء كان الإنسان مع نفسه أو مع غيره وقمّةُ ذلك وأصله صدقُ الإنسان فيما عاهد عليه ربه والقيام بذلك فى طمأنينة وثبات ، يوصله بهذا اليوم الذى ينفع الصادقين صدقُهم .

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء : ٨٨ ، ٨٩)

تلك هى الصفة الأولى من صفات من رضى الله عنهم ورضوا

---

(١) شرح السنة للأمام البغوى : باب النصيحة .

عنه . تُقْتَبَس من آية المائدة ﴿ **قال الله هذا ينفع الصادقين صدقهم** ﴾

أما الآية الثانية من سورة التوبة

« **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان** »

فإنها قد أجملت وأفادت بذكر من توفرت فيهم صفات من رضى الله عنهم ورضوا عنه وهم الصفوة الذين يُقْتَدى بهداهم من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان إنهم السابقون الأولون . وللسبق إلى الخير آهلُه ولَهُ قَدْرُه .

ولنتذكر صفة الصدق التى بدأنا بها فإن هؤلاء الصفوة هم أهل الصدق الذين وصفهم الله بصفات جامعة جعلت منهم السابقين لا فى الزمن فحسب بل فى الزمن والفضل وإيثار ما يبقى على ما يفنى فقال سبحانه عن المهاجرين .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

(الحشر : ٨)

وقال سبحانه عن الأنصار :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩)

وقال سبحانه عمن اتبعوهم بإحسان :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(الحشر : ١٠)

إن هذا التفصيل لصفات من رضى الله عنهم ورضوا عنه فى آيات الذكر الحكيم دعوةٌ للناس جميعا أن يتدبروا هذه الصفات .

فالقرآن قد أنزل وحفظ بحفظ الله ليكون بلاغا للناس ونذيرا للعالمين .

ولا يستطيع أشدُّ الناس مكابرة وإعراضا إلا أن يحنى الرأس إعجابا وتقديراً لعظم آثار هذه الصفات فى روابط الناس ومعاملاتهم . ولا يستطيع أن يقول إلا ما أخبر الله به عنهم **رضى الله عنهم ورضوا عنه .**

فالإخلاص والصدق والإيمان والحب والإيثار والجود . والجهاد بالأموال والأنفس . والصبر والشكر والذكر والتوكل على الله وحده مع الأخذ بالأسباب وسلامة الصدور وصفاء النفوس وحب الخير للناس . والدعاء والإنابة إلى الله .

كل هذه الصفات وغيرها من الفضائل والمكارم تَراها عملاً فى سلوك من رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وتراها فى آياتٍ تتلى على الناسَ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بياناً وهدًى وموعظة .

ليعـرف أن باب الرضا لم يغلق أبدا وأن هذه صـفات الداخلين فيه . فمن رغب ورضى فله الرضا وليستمسك بما رغب فيه .

باب الرضا مـفتـوح وللداخلين فيـه والقـادمين إليـه سمـات وصفات **لا تخفى ولا تبيد** جاءت بها التوارة وجـاء بها الإنجيل وحُفِظَ بها القرآن .

لِيعلم أن الرِّضا ليس موقوفا على ذَوات وإنما هو موقوف على صفات . وللصفات بقاؤها ولذوات المـتَّصفين بها شأنهم وقدرهم فى كل زمان ومكان .

ولمن اتصف بنقيض هذه الصفات الحـرمان من الرضا وسوء العاقبة والمصير .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(محمد : ٢٨)

وفى آية البـينة نرى من صــفــات من رضى الله عنهم ورضــوا عنه.

أنهم آمنوا وعملوا الصالحات :

وفى جزائهم الــذى تطيب به النفوس يأتى قـول الله إشارة إلى عظم هذا الجزاء وبعد مكانته « **ذلك** » **لمن خشى ربه** .

فتُعْطينا مفتاح الرضا فى كل أمر وفى كل شأن .

إنه فى قلبك وليس بعيداً عنك

إنه فى خشيتك من ربك

وهل جاءت الرسل إلا لذلك

وهل يصلح أمر الطغاة حيث كانوا إلا بذلك

« وأهديك إلى ربك فتخشى »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ، جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة : ٧ ، ٨)

فى الحديث المتفق عليه عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ناسٌ إلى النبى ﷺ **أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة .**

فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء فيهم خالى حرام . يقرأون القرآن ويتدارسونه بالليل يتعلمون .

وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه فى المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء .

فبعثهم ﷺ فعَرَضُوا لهم فقتلوهم قبل أن يَبْلُغُوا المكان .

فقالوا اللَّهُم بلِّغ عَنَّا نبينا أنَّا قد لَقِيناكَ فرضينا عنك ورضيت عنا .

وأتى رجلٌ حراماً خَالَ أنس من خَلْفِه فَطَعَنَهُ برمحٍ حتى أنفذه.

فقال حرام : فزتُ ورب الكعبة

فقال رسول الله ﷺ إن إخوانكم قد قُتِلُوا .

وإنهم قالوا : اللهم بلِّغ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك **فرَضينا عنك ورضيت عنا .**

فى الحديث وصفٌ لحال هؤلاء الذى رضوا عن الله ورضى الله عنهم

أول ما يطالعنا من صفاتهم وأحوالهم .

١ - يقرأون القرآن ويتدارسونه بالليل يتَعلمون

هذا ليلُهم ليس بلاه ولا عابث . وإنما هو ليلٌ ذاكرٌ خاشع يُقْضَى مستنيرا بآيات الله وكلماته .

لننظر إلى نهارهم لنرى ما كان فيه

٢ - وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه فى المسجد .

هذا عمل بارٌ ينتفع به المسلمون يشربون الماء ويتسعملونه فى حاجاتهم وكانى بنهارهم يطبق ما تدارسوه بليلهم .

فهم فى الليل يقرأون القرآن ويذكرون مقاصده وفى النهار يتحركون بأمره ويتقلبون بوحيه .

إنهم وهبوا أنفسهم للخير ورأوا أنفسهم به .

إنهم رجال لم يخدعوا أنفسهم ببريق الحياة .

إنهم عرفوا الطريق فتحدد العزم والسلوك .

أدركوا أن أنفسهم لله لا لغيره فلم يتوزعوا أو يتميعوا أو يترددوا فى اختيار طريق الباقيات الصالحات .

فهذا ليلهم يضاء بنور القرآن وهذا نهارهم يُقْضَى فى طيب الأعمال .

٣ - ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء .

هنا احتطاب بصيغة الإفتعال .

لأن تحصيل الحطب يحتاج إلى مزاولة عمل ، وهم يزاولون العمل وما يصل إلى أيديهم يبيعونه ويشترون الطعام لأهل الصفة وللفقراء أى نفوس هذه ، وأى نمط من الرجال ؟

إنهم رجال يقوم بهم دين وتُبَلَّغ بهم رسالة وتسعد بهم أمة وتنعم بهم جنة .

إنهم رجال انتصروا أولا على أنفسهم فجدير بهم أن ينتصروا فى جميع معاركهم .

إن الإنسان لا يُخذل إلا من نفسه . ولا يذل إلا من حرصه .

وإنك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك .

هؤلاء الكرام بعثهم النبى ﷺ ليدعوا إلى الإسلام ويعلموا القرآن ومن صفاتهم وأحوالهم ندرك حكمة الرسول ﷺ فى اختيارهم . وأنهم نمط من الناس جدير أن يدعو إلى الله بأفعاله قبل أقواله .

« ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من معلم الناس ومؤدِّبهم » .

ولكن يبدو أنهم ثمرة قد طابت وأن ثمنهم قد غلا . وأنهم أصبحوا برضى الله عنهم أهلاً لسلعة الله الغالية .

إنهم قد دعوا إلى الله بأبلغ ما يدعو إليه داع .

إنهم لم يعلموا أبناء جيلهم فقط بل علموا الأجيال الوافدة من بعدهم .

إن الله قد اختارهم دعاة لا لفئة محدودة فى زمنهم .

بل جعلهم دعاة أحياء بشهادتهم وقد أعلا ذكرهم وجعلهم أسوة لمن يأتى بعدهم .

إنهم فى هذه الساعة لا يذكرون أنفسهم ولا يقفون عند جراحاتهم إنهم يذكرون ربهم ويتذكرون نبيهم ﷺ وهم يرسلون إليه يطمئنونه ويبشرونه .

ولكن من يحمل رسالتهم ومن يبلغ عنهم ؟

الله الذى قتلوا فى سبيله .

إنهم لم يصلوا إلى المكان الذى أرسلوا إليه وإنما وصلوا إلى أعلا مكان وأكرمه .

أى مكان هذا الذى وصلوا إليه ؟

ذاك ما عبَّر عنه خال أنس - وهو يطعن برمح - حين قال: « فزت ورب الكعبة » وها هى رسالتهم قد وصلت وبلَّغ الرسول ﷺ بها حينما قال لأصحابه : إن اخوانكم قد قُتلُوا وأنهم قالوا : اللهم بلغ عنا نبينا « **أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورَضيت عنا** » .

يَالَه من بلاغ . سلامٌ على من حمل البلاغ من ربه ومن حُمِل إليه .

وسلام على هؤلاء الصفوة الذين لم يغب عنهم أن يُضَمِّنُوا رسالتهم ما ينبئ عن سعادتهم بما وقع معهم فقدموا رضاهم عن

الله فى موطن البلاء وطلبوا أن يُبلَّغ بذلك رسول الله ﷺ .

بلَّغ الله عنهم . فكان إخبارُ الرسول بأمرهم دلالةً من دلالات نبوته وإعلاماً بحقيقة الرضا فى البأساء والضراء وحين البأس فى حياة هذا الجيل ، جيل القدوة من صحابة رسول الله ﷺ فرضى الله عنهم جميعا وأرضاهم .

في روضة القرآن

الرضا.. في العاقبة والمآل

١٢ - الرضا فى العاقبة والمال :

من المعلوم أن الرضا فى العاقبة له مقدماته من العمل الصالح فى الدنيا وأن الذين تطيب نفوسهم بالجـزاء فى الآخرة هم الذين أحسنوا فى الدنيا ومن عرف للعاقبة قدرها لم يلهه شئ عن التعلق بها والحرص على إحراز أسبابها .

وكان رضاه بالعاقبة ذا تأثير بالغ فى ذات نفسه ومعاملة غيره ولكل شئ عاقبته ، ولكل عمل جزاؤه .

وعاقبةالأعمال تختلف باختلاف الأعمال فى ذاتها وباختلاف مقاصدها وغاياتها .

فمن عمل الخير وسعى له غير من أراد الشر وعمل به والرضا هناك لا يكون إلا لمن حسنت عاقبته .

ولا يجد الإنسان هناك إلا ما عمل عمل .

وذاك ما حكم به الله وذّكر به فى كتابه .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

(الزلزلة : ٧ ، ٨)

العاقبة واقعة لا محالة وهى لله وحده ولله عاقبة الأمور .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (لقمان : ٢٢)

وهنا يكون الرضا فى العاقبة ثمرة إسلام وإحسان ويكون الخسرانُ فيها جزاءَ عُتُوٍّ وطغيان

والعاقبة عندما تذكر هكذا فى القرآن الكريم دون إضافة لا تكون إلا للمتقين . وعندما تذكر مضافة فهى بحسب ما تضاف إليه .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هو : ٤٩)

﴿ لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه : ١٣٢)

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٣)

وإن أضيفت إلى الدار فهى للذين اتقوا وهم أهل الفوز والنجاة .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

(الرعد : ٢٢)

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد : ٢٢ ـ ٢٤)

وعقبى الدار **الجنة** بل جنات عدن إقامة وخلود .

« مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار **أكلُها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار** » .

وعاقبة الأمور قد تقع فى الدنيا وقد تقع فى الآخرة وما يقع فى الدنيا من ظلم وفساد ومكر وكفر وتكذيب بآيات الله .

تُرى عاقبته فى الدنيا وساحة الحياة الدنيا مليئة بدمار وهلاك ومداولة الأيام بين الناس تحكي للناس سنن الله فى خلقه وتريهم ما وقع بالظالمين والمكذبين من قبلهم .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧)

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص : ٤٠)

ومن أصر على ظلم أُخذ به . وكان عبرة وعظة لمن بعده .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر : ٤٤)

وإذا وقع الدمار بقوم وأُخذوا بذنوبهم ومعاصيهم كان حسابهم وجزاؤهم من بعد ذلك أنكر وأشد .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ (الطلاق : ٨ ـ ١٠)

فالموت ليس عاقبة المطاف للظالمين والدمار فى الدنيا ليس هو عاقبة كل شئ بل هو مقدمة لخسران وعذاب مقيم .

والموت لهؤلاء أهونٌ مما بعده وإن كان أشد مما قبله .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه : ١٢٧)

من هنا كانت الدعوة إلى العاقبة والعمل لها هى منهج القرآن الذى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم لتسلم الأولى من ظلم وفساد وتسلم الأُخرى من سوء عاقبة وخسران .

وإذا عرف الناس عاقبة الأعمال فقد بطلت المعذرة وانقطعت الحجة ومن أجل ذلك حفظ القرآن وعُرف البيان .

ولم يبق للناس إلا أن يختاروا لأنفسهم وقد أعذروا وأنذروا وقد جاءهم من الله نور وكتاب مبين .

لم يبق لهم إلا أن يختاروا لأنفسهم طائعين ما يترتب على أعمالهم محسنين أو مسيئين .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم : ٣١)

والعاقبة هى الجنة لمن اتقى وأحسن وفيها يكون الرضوان والنعيم المقيم وتلك هى عاقبة الدار .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ

كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٣١ ، ٣٢)

وهنا يكون الرِّضا فى العاقـبة والمال خالصاً سَـائغاً لا يشوبه كدر ولا نصب ولا خوف شقاء وحرمان .

وهذا ما ينادى به أهل الجنة نسأل الله أن يجعلنا من أهلها ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « إذا دخل أهلُ الجنة يُنَادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم أن تَحْيَوْا فـلا تموتوا أبداً وإن لكم أنَ تَصحُّوا فلا تَسـقمُوا أبدا وإن لكم أن تَشـبُّوا فـلا تهرموا أبداً وإن لـكم أن تنعمـوا فلا تيأسوا أبدا » .

وفى الحديث المتفق عليه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال : « إن الله عـزَّ وجل يقـول لأهل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربَّنا وسعديك ، والخيرُ كلُّه فى يديك .

فيقول : هل رَضيتُم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربَّنا وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً . فيقول · ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟

فيقولون : وأىُّ شئٍ أفضلُ من ذلك ؟

فيقول أُحلُّ عليكم رضْوانى فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً »

تلك هى العيشة الراضيـة التى ذكرها الله فى سورتى الحـاقة والقارعة حيث قال :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة : ١٨ ـ ٢٥)

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ (سورة القارعة)

إنه الرضا يتسع مداه فيشمل ما كان من سعى فى الدنيا وما يكون من نعيم مقيم فى الآخرة ولا يدع صاحبه فى موت أو احتضار . نجد دلالة ذلك فى سورتى الغاشية والفجر :

ففى سورة الغاشية .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) ﴾ (الغاشية : ٨ ـ ١١)

وفى سورة الفجر :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ (الفجر: ٢٧ – ٣٠)

فهل من همة عالية تنشد الرضا فى جميع المواطن والأحوال ؟

إن ذلك يستلزم التمسك بأمرين عزيزين فى معترك الحياة **التقى والصبر** . فإنهما مفتاح حسن العواقب فى العاجلة والآخرة

وهما جماع كل خير وبر ، وسبيلُ كل نصرٍ وفوز . وبهما يُرَدُّ كلُّ مكرٍ وكيد .

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران : ١٢٠)

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

(آل عمران : ١٨٦)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠)

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٩٠)

بهما مضى السابقون إلى فوز ورضوان وبهما يُخاطَبُ اللاَّحقون ليستعينوا على أداء الأمانة التى حملها الإنسان .

إن الرضا فى العاقبة والمآل مرتبط بإيثار الباقيات الصالحات فى الدنيا ولا يكون ذلك إلا لمن خاف مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى عندئذ تستروح النفس بصبرها وتقواها فى مواجهة الشدائد والمكاره وهى تسبِّح بحمد ربها آناء اللَّيل وأطراف النهار فترى خيرها فيما تَدخره هناك لا فيما تملكه هنا من زينة أو متاع .

فيكون الصبر مُعيناً على الثبات حتى الممات .

وتكون التقوى واقيةً من المحبطات والمبطلات والمهلكات .

ونعم الصبر صبر العـزة والقوة والثبات وحب المكارم ونعمت التقوى للإنسان حين يكون له منها خير زاد فى المغارم والمغانم. وليست التـقوى قولا بلا عـمل أو سلبا وبعداً عن مـعترك الحـياة وليس الصبر ضعفاً أو هواناً وهو يُستَمَدُّ من حسن الصلة بالله .

« روى البخارى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن فاطمة رضى الله عنها . شكت ما تلقى من أثر الرَّحى . فأتى النبى بسبى. فأنطلقت فلم تجده . فوجدت عائشة فأخبرتها . فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة قال : فجاء النبى ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال : على مكانكما .

فقـعد بينـنا حتى وجـدت برد قدمـيه على صـدرى وقال : ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانى .

إذا اخذتمـا مضاجـعكما تكبرا أربـعا وثلاثين ، وتسِّبـحاً ثلاث وثلاثين وتحمدا ثلاثا وثلاثين . فهو خير لكما من خادم »

قـال على رضى الله عنه فـيمـا رواه الإمـام أحـمـد « فـوالله مـا تركـتـهن منذ عـملنهن رسـول الله ﷺ ، فـقـال له ابن الكواء ولا ليلة صفين ؟

قال : قاتلكم الله يا أهل العراق ولا ليلة صفين .

أرأيت اخى القارئ : كيف يكون إيثار الباقيات الصالحات ؟ يأمر الرسول ﷺ بالتمسك بها والحرص عليها . فهى خير مما

يسأله الإنسان من حاجات الدنيا وزينتها التى تذهب ولاتبقى .

أخرج الطبرانى عن أبى الدرداء مرفوعا « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . هن الباقيات الصالحات » .

وأخرج النسائى عن أبى هريرة مرفوعا « خُذُوا جُنَّتكم . قيل يا رسول الله من أى عدوٍّ قد حضر ؟

قال . بل جُنَّتكم من النار .

قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات . وهن الباقيات الصالحات »

إن الموازنة بين الباقيات والذاهبات بين ما يبقى وما يفنى أمر يحتاج إلى بصيرة وحسن تدبر . ليكون اختيار الإنسان وإيثاره ما يبقى فطريا لا تكلف فيه وإيمانيا لا رهبانية معه .

والله عز وجل ـ رحمة بخلقه ـ يعينهم على ما دعاهم إليه من إيثار الباقيات الصالحات بآيات بينات فى أنفسهم وفى الآفاق من حولهم .

وقد حفظ لهم ما أنزل من كتاب ليكونوا دائما على بصيرة فيما يختارون لأنفسهم أو يعملون :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (الكهف : ٤٦)

فليوازن من شاء بين الزينة والقيمة .

والله عز وجل لم ينه عن الاستمتـاع بالزينة فى حدود الطيبات ولكن المـوازنة هنا تقتـضى ألا نجـعل من الزينة قيـمة نزن بهـا الناس ونعرف أقدارهم . إنها زينة وكـفى ! والزينة تذهب والقيمة تبقى وربما رأينا رجلاً ليس له من الزينة شيئا ولكن له من القيمة ما يثـقل ميزانـه . الموازنة الصادقـة هنا تجعلنا نعـرف قدر هذا وذاك على أساس مما يبقى لا بالنظر إلى ما يذهب ويفنى .

فقد يكون هذا خيراً من ملء الأرض من مثل ذاك .

كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : مَـرَّ رجُلٌ على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك فى هذا : فقال : رجلٌ من أشراف الناس هذا حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكَح ، وإن شفع أن يُشفَّع .

فسكت رسول الله ﷺ . ثم مرَّ رجلٌ آخر .

فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟

فقال يا رسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حَرِىٌّ إن خطب ألا يُنْكح ، وإن شفع ألا يُشَفَّع ، وإن قـال أن لا يُسْمَعَ لقوله فقال رسول الله ﷺ « هَذَا خيرٌ من ملء الأرض مثْلَ هذا »

والذين آثروا الباقيات الصالحات قد أحسنوا الموازنة فأخلصوا مع أنفسهم فى الاختيار ورضوا بالقيمـة التى تبقى مهما صاحبها فى الدنيا من متاعب ومصاعب .

جـاء رجل إلى أبى الدرداء فـقـال « أوصنى فقـال : أذكـر الله

عز وجل فى السـراء يذكرك فى الضراء . فـإذا اشرفت على شئ من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير » .

فليعرف الإنسان مصير مـا يرجوه وما تتعلق نفسه به وليزنه بميـزان حق وصدق . وفى الأرض عبـرٌ وعظات تحث الناس على أن يختاروا لأنفسهم الباقيات الصالحات . فالذين جمعوا كثيرا وأمَّلُوا بعيداً أين ذهبوا وإلى أين وصلوا ؟

« ألا إن قوماً بَنَوْا شديدا ، وجَمَّعُوا كثيرا ، وأمَّلوا بعيداً فأصبح بنيانهم قبوراً وأملهم غروراً وجمعهم بُورا » .

ذاك ما تخبرنا به وقائع الحياة وترينا إيَّاه .

فلا غـرابة أن نسمع أبا الدرداء رضى الله عنـه يقول : ابن آدم طَأ الأرض بقدمك فانها عن قليل تكون قبرك .

أبن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك .

ابن أدم إنك لم تزل فى هَدْم عمرك من يوم ولدتك أمك .

هذا الكلام ليس وعظاً يراد به تَرْقيق القلوب فـحسب وإنما هو كلام حق وصدق يراد به أن يحسن الإنسان إلى نفسه فى اختيار ما يرضاه لحسن عاقبته .

وفى الدنيا يقع الاختـيار فى ملحمة الابتلاء والفتنـة والاختبار ولن يسلم الإنسان من فـتن موجُها كالجـبال إلا إذا سلِم من هوى نفسه وخاف مقام ربه ورأى ما عنده وما عند ربك خيرٌ وأبقى .

عندئذ يكون رضاه عـن الله ممتدا فـى جميع مـراحله فى دنياه وعند فراقها وعندما ينظر كلُّ امرئ ما قدمت يداه .

وويلٌ لكلِّ جمَّاع فـاغر فـاه كأنَّـه مجنونٌ يرى مـا عند الناس ولا يرى ما عند الله روى الأمام أحمد عن شداد بن أوس قال :

إحفظوا مـا أقول لكم : سـمعت رسول الله ﷺ يـقول : إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكتنزوا أنتم هؤلاء الكلمات .

اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر

والعزيمة على الرشد

وأسألك شكر نعمتك

وأسألك حسن عبادتك

وأسألك قلباً سليماً . وأسألك لساناً صادقاً .

وأسألك من خير ما تعلم . وأعوذ بك من شر ما تعلم .

وأستغفرك لما تعلم وأنت علام الغيوب .

أرأيت أخى القـارئ دلالة هذه الكلـمـات ومـا تـوحى به هذه الدعـوات إنها ترشـدك إلى أن تأخـذ نفـسك بأسبـاب البـاقيـات الصالحات وأنت تعـمل فى دنياك بثبات ورشـد فى مرضات ربك فتـطيب لك دنياك بسـلامة قلب وصـدق لسان وتسلم لك آخـرتك برحمة من ربك ورضوان . وأنت تسـأله وتعـوذ به وتسـتغفره آناء الليل وأطراف النهار واثقـاً خائفاً راجـياً توقن أنَّ ما أنت فـيه منه وإليه وأنك له وأنَّك ـ لا محالة ـ راجعٌ إليه .

فـلا ترضى إلا بمـا رضى ولا تـؤثر إلا مـا أحب ولا تكون إلا حيث يرضى ويُحب عندئذ يكون رضَاكَ مرتبطـاً برضاه ومسعاك محمود بخشيته وتقواه .

وصبرك على المكاره صبر من يعرف غايته ومبتغاه .

وذاك مـا كان من أمـر على وفـاطمـة رضى الله عنهـما وهمـا يؤمران بما هو خير .

فـيـحرصـان عليـه ويكتـنزان منه ولا ينقطع ذلك منهـمـا ولا يشغلان عنه وكذلك يكون حالُ مَنْ رضى عن ربه وآثر رضاه .

وهو يوقن بلقائه ويرجو رحمته ويخشى عذابه .

عن عـبد الله بن عبـاس رضى الله عنهـما أنه قـال : ما انتفـعت بكلام أحدٍ بعد رسول الله ﷺ كانتفاعى بكتاب كتب به إلى على بن أبى طالبٍ فإنه كتب إلى :

« أما بعد : فإن المرء يسؤه فوتٌ ما لم يكن ليدركه .

ويَسره دَرْكٌ ما لم يكن ليفوته .

فليكن سرورُك بما نلْت من أمر آخرتك .

وليكن أسفُك على ماَ فاتك منها .

وما نلْت من دنياك فلا تكثرن به فَرَحاً .

وما فَاتك منها فلا تأس عليه حزنا .

وليكن همك فيما بعد الموت » .

عن عائشـة رضى الله عنها قالت : أقبلـت فاطمة عليهـا السلام كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال : مرحبا يابنتى

ثم أجلسهـا عن يمينه أو عن شمـاله . ثم إنه أسرَّ إليها حـديثا فبكت .

فقلت لها اختصك رسول الله ﷺ بحديثه ثم تبكين ؟

ثم إنه أسرَّ إليها حديثا فضحكت .

فقلت ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزنٍ .

فسألتُها عما قال ، فقالت : ما كنتُ لأُفشى سرَّ رسول الله ﷺ فلما قبض ﷺ سألتها فقالت : إنه أسرَّ إلى فقال : إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل عام مرة ، وأنه عارضنى به العام مرتين ولا أراه إلا قد حضر أجلى .

وإنَّك اول أهل بيتى لُحوُقاً بى ونعم السلف أنا لك »

فبكيتُ لذلك .

ثم قال : ألا ترضين أن تكونى سيدةَ نساء هذه الامة أو سيدة نساء المؤمنين ؟

فضحكت لذلك (١)

متى ضحكت فاطمة رضى الله عنها ومتى بكت .

بكت عندما علمت أن والدها ﷺ قد حضر أجله وحق لها أن تبكى .

وهى التى قالت لما ثقل النبى ﷺ وجعل يتغشاه : وا .. كرب أبتاه .

فقال لها : ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم .

فلما مات : قالت . يا أبتاه أجاب ربًا دعاه .

يا أبتاه منْ جنة الفردوس مأواه .

---

(١) اخرجه الشيخان وليس لفاطمة عليها السلام فى الصحيحين غير هذا الحديث .

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه .

فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام :

« يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب »

(اخرجه البخارى)

ومتى ضحكت رضى الله عنها لما أخبرت بما تلقاه عند ربها .

وقال لها ﷺ :

« أما ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ..

هنا الرضا كل الرضا فى العاقبة والمآل لمن رضوا عن الله ورضى الله عنهم فاحرص أخى أن تكون منهم ولا تكن من أولئك الذين يضحكون ملء أفواههم وهم لا يدرون إن كان ربّهم راضٍ عندهم أم ساخط عليهم .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ (التوبة : ٧١ ، ٧٢)

فاحفظ صفات هؤلاء وكن منهم واستعن بالله واحفظ ما قاله لقمان لابنه لتنعم بالرضا فى دنياك واخراك .

« اثنان لا تنسهما قط · الله والدار الآخرة .

واثنان لا تذكرهما قط : إحسانك إلى الناس وإساءة الناس إليك .

فهرس

في هذا الكتاب

بيانٌ لنعمةِ الرِّضا .

الرِّضَا عن الله فى عسرٍ أو يسر وشدَّةٍ أو رخاء

وإن بَعُدَ المطلوبُ أو أبطأَ المرغوبُ .

فإنَّ الرضا عن الله . معرفةٌ ، وهدايةٌ ، وطمأنينةٌ

وثقةٌ وتَجَدُّدُ أملٍ وإحْسَانُ عَمَلٍ فى غير يأس أو قنوط

وفى روضةِ القرآنِ وصُحْبَته يعرفُ الإنسانُ حقيقةَ

الرضا ونتائجَه وكيف يَدُوم .

فلا يُؤْثرُ إلاَّ ما أحبَّ الله ، ولا يكونُ إلاَّ حيثُ يرضَى

اللَّهُ ويُحِبُّ

فهذا الكتابُ دعوةٌ إلى صُحْبة الْقرآن وَتَدَبُّره

لِيَنْعَمَ الإنسانُ بنعمةِ الرِّضَا عن الله فى جميع

الأحوال

ويفوزَ بِرِضَاهُ فى العاقبة والمآل .